



الامبراطورية

بعد احتلال العراق

دراسات وأبحاث مترجمة إلى العربية



بول كينيدي ، نعوم تشومسكي ، وآخرون

ترجمها وقدم لها : تركي الزميلي

www.islamtoday.net

الامبراطورية

بعد احتلال العراق

بول كينيدي ، نعوم تشومسكي ، وآخرون

دراسات وأبحاث مترجمة إلى العربية

ترجمها وقدم لها : تركي الزميلي

منشورات موقع الإسلام اليوم ومركز القارئ
للدراسات والترجمة
البريد الإلكتروني: **info@islamtoday.net**
البريد الإلكتروني: **info@qaary.com**
موقع الإسلام اليوم ص. ب: ٢٨٥٧٧ الرياض ١١٤٤٧
هاتف: ٢٠٨١٩٢٠ - فاكس: ٢٠٨١٩٠٢
الكتاب : الإمبراطورية بعد احتلال العراق
بول كينيدي، نعوم تشومسكي، وآخرون
التقديم والترجمة: تركي الزميلي
الطبعة الأولى : ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

نسخة خاصة

مهداة إلى فضيلة الشيخ

سلمان بن فهد العودة

المحتويات

■ المقدمة

المقدمة

"إن من يعرف العدو ويعرف نفسه؛ سوف تمتد حياته ليخوض مائة اشتباك. وإن من لا يعرف العدو ولكنه يعرف نفسه؛ قد ينتصر أحياناً وينهزم أحياناً أخرى. أما من لا يعرف نفسه ولا عدوه؛ فإنه سيُمنى بالهزيمة دائماً في كل اشتباك[١]".

صن تسو

"إننا نحارب من أجل تحرير الشعوب، التي طالما قَمَعها الأتراك، تحريراً كاملاً واضحاً لا لبس فيه، وإقامةِ حكوماتٍ وإداراتٍ وطنية، تَستمدُّ سلطتَها من مبادرة السكان المحليين، واختيارهم الحر[٢]".

البيان البريطاني الفرنسي في ١٩١٨م فور نشر اتفاقية سايكس - بيكو

تمثل الرؤى التحليلية والاستشرافية المطروحة في فصول هذا الكتاب -التي نُشر معظمها بعد احتلال العراق- عينةً مهمةً لهواجسَ ومواقفَ، تَطرحُها النخبُ المفكرة في الشأن السياسي والاستراتيجي في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن أصبحت

---

(١) نقله دانييل بورشتاين وزميله في كتابهما "التنين الأكبر" ص٤٢٥، ت: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة (٢٧١) يوليو ٢٠٠١م.

(٢) نقله ويليام إنجدال في كتابه: "مائة عام من الحرب" ص٦١ .

الأسئلة المتعلقة بالموقع الأمريكي في القرن الحادي والعشرين بين قوى العالم؛ هي المحرك النشط لغالب النقاشات المَعْنِيِّة بدور أمريكا ومستقبلها، وعَبْرَها تُطرح الأخطار الجديدة، مثلما يُناقَش مدى الاستعداد الذاتي لدى الأمريكان شعباً ومؤسسات، ودرجة التحول المطلوبة لتحقيق الهيمنة الدائمة على القرار العالمي، مع حضورٍ لهامشٍ أمريكي معترض من الناحية الأخلاقية والمبدأية، اقتصرنا هنا على أبرز أعلامه ممثلا لوجهة نظره، وهو العالِم اللساني البارز، والسياسي اليساري المعارض نعوم تشومسكي.

لقد كان سقوطُ الاتحاد السوفياتي، وانهيارُ جدار برلين، وظهورُ الانفراد الأمريكي، وتصاعدُ البناء لأوروبا موحدة، مع انهيار التهديد السوفيتي الموحِّد للعالم الغربي، وصعود الصين، ثم الهند لاحقاً وإنْ بشكلٍ أبطأ، وبروز مؤشرات أولية للتحول على المدى البعيد في القوة والنمو من مراكز الهيمنة المعتادة في العالم الغربي في أوروبا ثم أمريكا خلال القرون الحديثة، إلى مناطق الثقل السكاني الممتص للمعرفة والمهارة والثروة في آسيا الصاعدة باستمرار؛ كان ذلك كله قد صاحَبَه بحثٌ مستمر عن سياسة جديدة ملائمة، تستثمر فرصة التفرد التي قد لا تطول، واختلال

التوازن -عسكرياً بالدرجة الأولى واقتصادياً بالدرجة الثانية- لصالح الولايات المتحدة، والسعي إلى الحفاظ على ديمومة التفرد والنفوذ الأمريكيين على بقية العالم، وكانت عدة مشاريع نظرية قد قُدمت لحكومة بوش الأب ثم كلينتون من بعده طوال مرحلة التسعينات.

ولكن التحول الحقيقي نحو تبني النمط الامبراطوري لم يشهد زخمه التنفيذي إلا في ظل إدارة بوش الابن، وبعد أحداث ١١ أيلول، والخلوص إلى إعلان عقيدة بوش في العام المنصرم، بوصفها مُوجِّهاً عاماً لسياسة أمريكا الخارجية في هذه الحقبة؛ وبصفتها أنسبَ الحلول المطروحة -كما يدعي المحافظون الجدد المهيمنون على مفاصل الإدارة الأمريكية الحالية- لإبقاء النفوذ الأمريكي، أمام تحديات صعود القوى الجديدة في آسيا، وبدايات تمرد أوروبا الموحدة، ومواجهة لحظة النمو المحتملة في العالم العربي والإسلامي، التي قد تمثل على المدى البعيد تحدياً حضارياً وسياسياً، وربما عسكرياً واقتصادياً، يُقلِّص من حجم النفوذ الأمريكي على مقدراته، وقد يتعاطى مع أوروبا ومع قوى الشرق الصاعدة في منطقة استراتيجية وأساسية، مما يُخِلّ باستهداف

الحسم في معركة استمرار التفرد على القرار العالمي[1] كما تمَّ معالجة بروز تحدي القاعدة والجماعات المتبنية لحرب مفتوحة عابرة للدول والقوميات، خصوصاً بعد أن استطاعت استهداف الداخل الأمريكي، من خلال الجمع بين مواجهة هذه الجماعات، واستثمارها معاً باغتنام الفرصة السانحة، وفرض الرؤية الأمريكية، تحت غطاء محاربة "الإرهاب"، والجماعات أو الدول "المارقة" الراعية له، وربط الهدفين في منظومة واحدة، مع محاربة انتشار أسلحة الدمار الشامل.

---

(١) يتابع بول كينيدي تغيرات التوازن في القوة بين بلده والقوى الأخرى باستمرار، وقد كتب في الإصدارالسنوي الخاص من مجلة نيوزويك (Issues 2003) عن التفرد الأمريكي في المستويات الثلاثة الأساسية لميزان القوة ملاحظاً ما لحق بها من تغير، فعلى صعيد القوة العسكرية ليس هناك قوة حالية تقترب من القوة الأمريكية (الآن بميزانية دفاع تفوق نصف ميزانيات الدفاع لدى دول العالم مجتمعة! بعد تخصيص ٤٠٠ بليون دولار للدفاع). ولكن في الحقل الاقتصادي يظهر أن اللعبة أكثر توازناً، فالاتحاد الأوروبي يعادل أمريكا أو يفوقها قليلاً. وفي حقل التكنولوجيا هناك مؤشرات مهمة، فقد كانت الولايات المتحدة مثلا منذ بضع سنوات فقط تسيطر على ٤٥٪ من حركة الإنترنت، وفي السنة الأخيرة بحسب تقرير الاتحاد العالمي للاتصالات الإنترنتية تراجعت النسبة إلى ٢٩٪، وهي تساوي نصيب أوروبا، وأقل من نصيب آسيا البالغ ٣١٪!، وفي حقل الثقافة والأفكار وتأثير ما يسمى بالقوة الناعمة يظهر ازدياد النفور والعداء لأمريكا في كل مكان، يستوي في ذلك أن تتجه إلى أوروبا أو المكسيك أو كندا، أو غيرها. انظر:

Issues 20003, Newsweek, Special Edition, p 98-99.

وقد كان آخرَ ما تَحقّق وضعُ يد الاحتلال المباشر على قلب العالم العربي (العراق)، على أمل الانطلاق منه نحو إعادة تشكيل المنطقة بكاملها، لتكون تحت الهيمنة الأمريكية المباشرة، مع كسر كل حواجز الممانعة، وإعادة تأهيلها لتتلاءم مع دورٍ مركزيٍّ قادمٍ لإسرائيل، بوصفها الشريك الأول للقوة العظمى الوحيدة في العالم، ومن خلال دوافع أمريكية متعددة، يتضافر فيها الديني مع المصلحي، ويخدم كلٌّ منهما الآخر، مع ما يصحب غرورَ القوة من إرادة الهيمنة، والتخوف من تحولات قادمة غير محسوبة، أصبح التعامل المباشر معها هو السياسة المفضلة، وصار الهدف المنشود لا يقل عن التفكيك الشامل ثقافياً وسياسياً واقتصادياً. والدراسة المضمَّنة هنا لروبرت دريفس "هل العراق رصاصة البداية في حرب إعادة تشكيل العالم؟" تشرح التطور الذي أخذته هذه الرؤية؛ حتى دخلت إلى حيز التبني والتنفيذ، كما تعرض تفاصيلَ مهمة عن الطموح والمطامع التي ليست بالضرورة قابلةً للتحقق، أو قادرة على اجتياز عوائق الممانعة المتراكمة في طريقها، ولكن الوعي بها جزء أساسي من مكونات المشهد، التي ينبغي رؤيتها وأخذها بعين الاعتبار.

إن هواجس الخوف من الانهيار السريع للمشروع الامبراطوري الجديد، تظهر بشكل بارز في ثنايا كل الدراسات المترجمة في هذا الكتاب، مع استحضارٍ مستمر للتاريخ الاستعماري البريطاني والمقارنة معه، أو حتى الإغراق في تقليب أوراق أقدم زمناً، بالعودة إلى الإمبراطوية الرومانية في عصورها الزاهرة، وهذه المراوحة بين التاريخ والحاضر والمستقبل سمة بارزة في معظم هذه الدراسات، وفي مجمل سياق النقاش العام عند النخب المفكرة الأمريكية في هذه المرحلة، وهو أمر طبيعي حين تمر أي أمة بهواجس المواجهة مع الذات والآخرين، ووزن الخيارات الاستراتيجية الممكنة بناء على ذلك.

وأنت عندما تنتقل إلى فصول هذا الكتاب سترى كيف يُعنى المؤرخُ الأمريكي نيل فيرجسون بهواجس أمريكا الإمبراطورية، ومشكلة عدم الملاءمة في التكوين والاستعداد عند الشعب الأمريكي، لأداء دور الإمبراطورية المستعمِرة، وهو يُقدِّم مقارنة تستحق القراءة والتأمل، بين التأهيل الذي كانت تحظى به بريطانيا شعباً وحكومةً لأداء دورها الامبراطوري في حقبة صعودها، وبين القصور في التأهيل لدى الأمريكان رغم فوارق القوة العسكرية

والاقتصادية؛ ولن تغني الإشارة هنا عن تأمل الدراسات الثلاث المهمة: "مخاطر الامبراطورية"، و"الإمبراطوية تنسل عائدة"، وأخيراً "روما جديدة قدس جديدة". ففيها عرض لأهم التخوفات، ولكن أيضاً لمجمل الأحلام الإمبراطورية، التي تقع منطقتنا العربية في القلب من اهتماماتها، ولا معنى لتلخيصها هنا، وقد ترى عينُ القارئ خلف السطور وفيها وبينها ما لا نراه.

أما هامش الاعتراض اليساري -الذي قد يؤثر بشكل أبرز في فترة قادمة لو أخفق المشروع الامبراطوري في تحقيق الأمن والرخاء المادي- فربما يُلخِّص تشومسكي رؤيته الأكثر وضوحاً، فهو يعد الحرب على العراق واحتلالها تحولاً نوعياً في الاستراتيجية السياسية، يُمثِّل -في تحليله- تجربة أولى لعقيدة الحرب الاستباقية، المعلنة في التقرير القومي الاستراتيجي لعام ٢٠٠٢م، والتي عُرفت باسم "عقيدة بوش"، وتمثل نقلة نوعية أساسية -وإن لم تكن بلا سوابق- في الاستراتيجية السياسية الأمريكية.

وربما كان أهم ما حاول تشومسكي التشديد عليه الوعي بالفرق بين "الحرب الوقائية" و"الحرب الاستباقية"، فالأولى تعني "الرد على هجوم مستمر، أو هجوم وشيك" كإسقاط هدفٍ مُعتدٍ،

في طريقه لضرب موقع أمريكي أو محميٍّ أمريكياً، أو ضرب القواعد التي توشك على إطلاق هذا الهدف. بينما الحرب الاستباقية تعني: "أن الولايات المتحدة -لوحدها بعد أن لم يعد معها أحدٌ يمتلك هذا الحق- لها الحق بمهاجمة أي بلد، تدعي أنه يمثل خطرا محتملا عليها".

وهذه الطريقة الأمريكية في صياغة مبدأ موجه للسياسة الأمريكية هي تقليد أمريكي مستمر تتابعت فيه "المبادئ السياسية" الموجِّهة، كـ "مبدأ مونرو": "أمريكا للأمريكيين" الذي رفعته قبل الحرب العالمية الأولى للمحافظة على بقاء نفوذها في فضائها الإقليمي بعيداً عن أي تدخل أوروبي، و"مبدأ ويلسون" المُعلِن لـ"حق الشعوب في تقرير مصيرها" بهدف إزاحة الاستعمار الأوروبي عن العالم، وإعطاء فرصة لتسرب النفوذ الأمريكي شريكاً له، أو بدلاً منه، وهكذا ففي كل مرحلة يُصاغ عنوانٌ عام، تَندرِج تحته تفاصيل التعامل مع العالم، ويبقى المبدأ ما بقي السياق الذي نشأ في ظله قائماً، يستدعي استمرارَ المبدأ وتوظيفه.

لكن مبدأ "الحرب الاستباقية" الذي رسمه في الأساس نخبةُ الاستعماريين الجدد في الإدارة الأمريكية؛ يَحشد تخوفاتِ العالم

كله ضدَّ استمرار التفرد الأمريكي، بما في ذلك أوروبا، وربما ينتهي الأمر بتكرار ما يدعوه جون إكنبري بنزوع "الدول القوية نحو تطويق نفسها بنفسها عبر غلوها في تقدير قوتها"، وحصول رد الفعل من البلدان الأخرى التي ستقرِّر غالباً أنها "ليست مستعدة للعيش في عالم تحكمه دولة قاهرة"[١]، خصوصاً وهي تعطي لنفسها وبصورة معلنة الحق في شن الحرب ضد أيٍّ كان، بمجرد أن تقرر هي ولوحدها خارج كل ما استقر من مؤسسات دولية، أنه قد يشكل خطراً عليها، أو على انفرادها بإدارة شئون العالم[٢]. وفي دراسة ستيفن هولمز المترجمة هنا محاولة لنقد المغالاة في قدرة الولايات المتحدة على تنفيذ سياسة كهذه، ورفضٌ لاستعداء أوروبا، من خلال النقد لأطروحات واحدٍ من الكتب المهمة التي حاولت تفسير الموقف الأوروبي في مقابل الموقف الأمريكي من قضية العراق وغيرها.

---

(1) Foreign Affairs, Sep.oct.2003

(٢) بعد مرور أسابيع على احتلال العراق، دون العثور على أي سلاح دمار شامل من أي نوع، كتب كريستوفرديكي في مجلة نيوزويك: "الحرب العراقية شُنت على دولة ذات سيادة، ليس بسبب ما فعلته، بل بسبب ما يُحتمل أن تفعله... بسبب نوايا صدام حسين المحتملة، المتعلقة بامتلاك أسلحة الدمار الشامل، التي قد يزود بها الإرهابيين، الذين قد يستخدمونها ضد الولايات المتحدة." (نيوزويك، ٢٠/٥/٢٠٠٢م).

أين نحن من هذا كله؟

كتب مفكر عربي لامع (طارق البشري) مع مطلع القرن الميلادي الجديد مراجعاً تجربة المائة سنة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، فكان مما عدَّه معلماً على حصاد مقبول، في ضوء ما مر به العالم العربي من مآزق؛ أن انتهى القرن وهو غير مستَعمَرٍ استعماراً عسكرياً مباشراً.

ترى ماذا يمكن أن يخطر بباله اليوم، لو عاد يتصفح ما كتبه من ثلاث سنوات، ويراقب المنطقة العربية بكل أنظمتها، وهي في غاية العجز والارتباك تحت وقع الخوف من القادم، وقد أصبح المحتل يرتكز في قلب العالم العربي، فيحاصر مراكزه كلها من منطقة العمق، وتكاد بعضٌ من صغريات أقطاره -ولو لبعض الوقت- تبدو وكأنها مركزُ النشاط السياسي دون دول الارتكاز، التي تفوقها دوراً وحجماً، أضعافاً مضاعفة. والحال لا يختلف كثيرا عما يجري في بقية العالم الإسلامي. "منذ ولادتي حتى اليوم؛ وأنا أسمع وأشاهد المسلمين يُقتلون". بهذا التعبير المباشر والموجز تحدثت مسلمة بريطانية بعد مباشرة الحرب على العراق إلى مراسل مجلة نيوزويك الأمريكية، ولخّصت به حقيقة الشعور الذي

يزداد عمقاً وحِدة في حس مليار وثلاثمائة مليون مسلم عبر العالم، تراكمتْ على أجيالهم أخبارُ الحروب المفتوحة عليهم، وما تزال أعينهم تتابع في العقد الأخير تساقط أرتال الصواريخ والقذائف على عدد من دولهم ومدنهم، بحيث لا تكاد أن تتوقف حرب، حتى يَتمهَّد الطريق لأخرى، مصحوبةً بأخطاء منهم وسوء تقدير وتخلف علمي وتقني وتسلط سياسي داخلي وخارجي، وباستهداف من أعدائهم لا يتوقف.

لقد نزف القتل من دماء المسلمين عبر تاريخهم الحديث والمعاصر في مفاصل علاقاتهم بالعالم الغربي عبر الاستعمار الأوروبي بأشكاله المختلفة: الأسباني، الإيطالي، البرتغالي، الفرنسي، البريطاني، فيما أصبح يوصف الآن بالاستعمار القديم، وحتى الاستعمار الجديد الذي أعاد مشاريع الاحتلال المباشر مرة أخرى، كما استمر بين الحقبتين وإلى الآن من خلال أشكال كثيرة، أشدها عنفاً ورمزية الدعم المستمر للمخلب اليهودي الناهش باستمرار. وجرى مع ذلك تبادل متنوع للمنافع، وأَخذَ التعاملُ أشكالاً عديدة عبر هذا التاريخ الطويل، سلماً وحرباً، ساخنةً وباردةً، عسكريةً وثقافيةً واقتصاديةً، تواصلاً وتقاطعاً. ولكن

المرحلة الحالية تكاد تنساق إلى غلبة الاحتلال والإذلال، والطموح في التغيير الجذري لكل ممانعة دينية أو ثقافية أو سياسية، مما يستفز الانتقام والرد، في دائرة تكبر وتتسع دون مخارج، تُغذيها حروب مفتوحة متتالية، من المرجح أن لا يكون زلزال العراق آخرها.

كما يبدو أن الاشتعال سيزداد في ظل الرؤية التي تؤكد بأن من شروط استمرار سيادة أمريكا على العالم تمكنها من أدوات السيطرة على منافسيها المباشرين، وأن السيطرة على المنطقة العربية شرط ضروري لاستمرار سيادتها على العالم بأقل كلفة (كما تعتقد) بمقتضى دور هذه المنطقة في خارطة المعمورة الحالية، "ففيها الجزء الأهم من موارد الطاقة الحالية والمقبلة: البترول والغاز والشمس. وهي الممر الأقرب بين الشرق والغرب أرضاً وبحراً وجواً مما يجعلها الحزام الممسك بخناق أوروبا. وهي الطوق المحيط بإسرائيل والمناقض لها مناقضة وجود لا حدود. وهي الحليف الممكن لأوروبا أو الشرق الأقصى ضد أمريكا إذا أصبحت ذات إرادة واعية تعزم الأمور. وهي أخيرا قلب العالم الإسلامي الذي بدأ يسترد طموحه التاريخي المنافس للحضارة الغربية من منطلقات فلسفية ودينية لا يمكن تجاهل أهمية دورها في تطور الحضارة الإنسانية."

ما العمل في ظل كل هذا؟ لقد واجه المثقفون وصانعو الرأي العام والنخب أشد المحن والهزائم في العقود الماضية بردات فعل يائسة، مثلما شهدت هزيمة ١٩٦٧م، حين وصل الأمر ببعض أفراد من النخبة إلى ممارسة الانتحار الفعلي رداً على الهزيمة، وكان جلد الذات الموضوعَ المهيمن في الخطابات الأدبية شعرها وسردها، والخطابات الفكرية لدوائر الثقافة حزبيها ومستقلها.

غير أن هناك مَن يعتقد أن الأمر اختلف الآن[١].

إن الحالة التي وصل إليها المسلمون اليوم -والعالم العربي في القلب منهم- مزدحمة بمؤشرات تُهيؤهم -وإن على المدى البعيد- لتجاوز أمكنة الهامش، التي لازمتهم قروناً طويلة، وبداية شَغْلِ دورٍ مؤثر في هذا العالم، ومن المهم للعرب والمسلمين أن يعوا موقعهم وفرصهم في هذه المرحلة من تاريخ البشرية، بقدر أهمية الوعي بالمخاطر الهائلة التي تواجههم، وقد تمثل لهم مهماز اتقاد واجتماع، وتضع أمامهم تحدياً يفجر طاقاتهم ويجمع شتاتهم، كما أنها قد

(١) ممن يرى ذلك الدكتور أبويعرب المرزوقي، وقد تناوله في أكثر من مقال في جريدة الحياة اللندنية، وانظر حواره مع د. طيب تيزيني في كتاب: "آفاق فلسفية عربية معاصرة" ص٤٣-٥٢، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ. وللصديق العزيز الدكتور محمد حامد الأحمري كتاب مهم في طريقه إلى النشر يعالج هذه الفكرة بتوسع.

تعيقهم، وربما تسحبهم إلى مكانة أشد تراجعاً مما هم عليه الآن، إن لم يتعاطوا مع التحديات بما تستحق من وعي وعمل.

إن تحقق الثقة بالذات، بعد انحسار موجة الفلسفات الغربية الكبرى عن التأثير الشامل، يخرجُهم من إسار تهميش أنفسهم بالانكماش المنغلق على مفاخر التاريخ، واستنساخ مشكلاته وحلولها، التي لا تستجيب بالضرورة لأوضاع الحاضر ومشكلاته، ومعالجة أمراضه، وامتلاك أدوات التأثير فيه، وبناء القوة فكراً واقتصاداً وسياسةً، أو الاندثار في هامش التقليد القِشري المشحون بشعور النقص القاتل، أمام هيمنة المسار الحضاري الغربي بحقائقه وأباطيله، وليس الثاني بأقل ضرراً وأبلغ في الإساءة من سابقه.

من جهة أخرى فإن هاجس المراجعة والتصحيح، والبحث للذات الجماعية عن موقع في هذا الكوكب هو مدار حوارات ونقاشات، تخترق قطاعات كبيرة في مختلف طبقات المجتمع داخل دوائر الحكم والمعارضة على حد سواء. كما أن سؤال الهوية لم يعد في الغالب الأعم مجسِّداً للنفس المبتورة، التي يتنازعها موقفان متطرفان: التسليم لمنظومة غربية متكاملة، يتم التلمظ بقشور منها دون هضم، ثم يجري اعتمادها في النظر إلى طبيعة الفرد والمجتمع

والوجهة والمصير، وربط اكتساب تقنيات العصر وعلومه بهذا الموقف. أوالانغلاق على ما استقر عليه موروث الذات، الذي يختلط فيه الموقف المتمسك بنصوص الوحي المعصوم، مع مدونة من التلقيات المتعددة والقراءات المختلفة على مدى القرون، وبتأثر بالغ بما استقر من أعراف واستوطن من عادات وتقاليد محلية في كل بقعة بعينها.

إن انتشار الإسلام في العالم كله يمنع إمكانية الحصار المستأصل له[1]، ومجتمعاته شابة في معظمها، ولديها إن واجهت

---

(١) ٢٣من الطريف أن نذكر هنا ما صرح به: بني ألون وزير السياحة الاسرائيلي لصحيفة "هآرتس (٢٠٠٢/٥/١م) قائلاً: "من الواضح أن الإسلام في طريقه إلى الزوال... فما نشاهده اليوم في العالم الإسلامي ليس انتفاضة إيمان قوية، بل انطفاءة جذوة الإسلام. أما كيف سيزول فبكل بساطة، بقيام حرب مسيحية صليبية ضد الإسلام في غضون بضع سنوات، ستكون الحدث الأهم في هذه الألفية. وطبعاً سنواجه مشكلة كبرى حين لا يبقى في الساحة سوى الديانتين الكبيرتين، اليهودية والمسيحية، غير أن ذلك ما زال متروكاً للمستقبل البعيد."! في المقابل تأتي الحقائق على غير ما يشتهي بني آلون، ففي مقدمة الموسوعة التي أصدرتها إكسفورد عن الإسلام "The Oxford History of Islam" يذكر محرر الموسوعة مدى الانتشار الذي تحقق للإسلام بنهاية القرن العشرين، بحيث أصبح موجودا في كل القارات، وهو الدين الثاني في أوروبا وأمريكا، وأن ما كان يعتقد في مطالع القرن السابق من أن تغريب المجتمعات المسلمة مسألة وقت فحسب قد انعكس تماماً، وأصبحت التحديث يبدأ رحلة الانتقال، ولكن التغريب لا يتحقق، بل يتأكد الانتماء إلى الإسلام في =

عيوب تخلفها ما يجدر أن تتفاعل به مع العالم فكراً وثروات، ويمكن أن تبدع حلولاً كونية بديلة أو منافسة تساهم بها، خصوصاً بعد أن توّحش اقتصاد العولمة في ظل تفرد الرأسمالية في مرحلة أولى، ثم جرى الآن ويجري عسكرة العولمة، ومحاولة صياغتها بطريقة تبتز العالم كله، وتخضعه لمصالح دولة واحدة. ولكن مرحلة التحول التاريخي ربما تكون قد بدأت، إذ يكاد الجانب السكاني في العالم الغربي يصبح أهم مؤشر على تراجع قادم لمكانته في العالم، وقدرته على استمرار مشاريع الهيمنة التي عاش بها قروناً متتالية.

يخصص فرنان برودل في الجزء الثاني من كتابه الضخم "هوية فرنسا الناس والأشياء" فصلاً لحقبة الحضور المتنامي للحضارة الغربية، يعنونه بـ "١٤٥٠-١٩٥٠م منحنى صاعد، وياله من منحنى"، ويعد "الواقع الديموغرافي" هو العامل المحتل للصدارة. ويلاحظ أن فرنسا خلال فترة الصعودة هذه "بالرغم من كل التقلبات المسجلة،

= كل مكان به مسلمون (انظر في المرجع نفسه: الخريطة التي تبين كيف يتوزيع ١,٢ بليون مسلم في العالم كله). وفي إسرائيل نفسها مع كل عمليات الهجرة والاستيطان فإن التوقعات الإسرائيلية تقول إن عدد الفلسطينين من عرب إسرائيل يمثل حالياً خمس السكان، وبمعدل تكاثر سكاني يبلغ ٤,٦٪ في مقابل تكاثر يهودي يبلغ ٢,٦٪، ويتوقع معه الإسرائيليون في عام ٢٠٢٠م أن يزداد عدد عرب إسرائيل ليعادل ثلث السكان.

لم تعان قط مرة أخرى من تقهقر كارثي كتقهقر ١٣٥٠-١٤٥٠م. لم تحدث ضربة قاتلة قط، ولم تنفتح هوة تبتلع ثلث أو نصف السكان الفرنسيين، وحتى تحدث اليوم كارثة كهذه، لابد للمرء أن يتصور - مثلما يتصور ذلك عدد قليل من الناس- كارثة نووية تتاخم حدود فناء العالم" ص١٦٢ .

لكن إحصاءات السكان فيما يخص الغربيين، تظهر أن الكارثة الأخلاقية بدأت تقوم بالمهمة "الكارثية" الآن! وهو ما يرفع النفير ضده لفيفٌ من المنذرين ذوي مرجعيات متباينة، بدءا ببيوكانن الكاثوليكي، ومرورا ببوش البروتستانتي الحالم بإعادة قيم العائلة في الحياة الأمريكية من منطلقات دينية، ووصولاً إلى فوكوياما الذي أطل على مشهد نهاية التاريخ، فرأى بعده بسنوات معدودات أن مجمل الحياة الاجتماعية لـ"الإنسان الأخير" تنذر بمخاطر هائلة.

وهنا موجز لما تظهره لغة الأرقام حول هذه المشكلة(١):

(١) يمكن مراجعة تفاصيل أكثر غنى في المرجعين التاليين:

Patrick J. Buchana, The Death of The West (Thomas Dunne books, New York, 2002) p. 11-42

- Paul Kennedy "Global Challenges at the Beginning of the Twenty-First Century" in Global Trends and Global government (Pluto Press, London, 2002)

في ١٩٦٠م كان عدد الغربيين (أوروبيين وأمريكان وأستراليين وكنديين) ٧٥٠ مليوناً، وهو ما يعادل ربع الثلاثة بلايين الأحياء، وبعد أربعين سنة أطل عام ألفين وقد تضاعف عدد سكان العالم وبلغ ٦ ملايين إنسان، ولكن أعداد الغربيين في الفترة التي تضاعف فيها سكان العالم قد بدأت في الهبوط، وكان القرن الجديد يشرف على شعب واحد فقط من بين شعوب أوروبا السبعة والأربعين، وهو يحافظ على معدل مواليده هو شعب ألبانيا المسلم!

ماذا عن المستقبل؟

بالرغم من أن استقراء المستقبل يتم من خلال منظار الحاضر، الذي قد تطرأ عليه عوامل وتحولات طارئة وغير محتسبة في الاستقراء، إلا أن الوضع القائم إن استمر فإن المتوقع بين عام ٢٠٠٠ و٢٠٥٠م أن ينمو عدد سكان العالم بزيادة تبلغ ما بين ٣ بلايين إلى أكثر من ٩ بلايين إنسان، ولكن نسبة الزيادة المتوقعة هذه البالغة ٥٠٪ ستحدث بكاملها في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وستكون سلالة ١٠٠ مليون نسمة من الأوروبيين قد تلاشت من الأرض!

في عام ١٩٦٠م كان أسلاف أوروبا يشكلون ربع سكان العالم، وفي عام ٢٠٠٠م كانوا يمثلون سدس سكان العالم، وفي عام ٢٠٥٠م سوف يشكلون عشر سكان العالم فقط! يقول بيوكانن: "إنها إحصائيات العرق المتلاشي".

أصدر قسم السكان الرسمي في الأمم المتحدة في ٢٨ شباط ٢٠٠١ كتاباً بعنوان "توقعات سكان العالم" وهو خلاصة المراجعات والدراسات السكانية التي قامت بها المنظمة في عام ٢٠٠٠م، وورد في الدراسة أن مجمل عدد سكان أوروبا (من آيسلاندا إلى روسيا) في عام ٢٠٠٠م بلغ ٧٢٨مليون إنسان، ولكنه حسب معدلات المواليد سينهار إلى ٦٠٠ مليون إنسان بحلول عام ٢٠٥٠م.

ألمانيا نموذجاً: من المتوقع بحلول عام ٢٠٥٠ م، واعتمادا على نسب النمو الحالية، أن يختفي ثلاثة وعشرين مليون ألماني، وأن يتناقص سكان ألمانيا الاثنين والثمانين مليون نسمة إلى تسعة وخمسين مليوناً فقط ، وأن يهبط عدد الأطفال الألمان ممن هم دون الخامسة عشر إلى ٧,٣ مليون ، وسيكون ثلث سكان ألمانيا فوق الخامسة والستين، وسيفوق عدد المسنين هذا عدد الأطفال الألمان بنسبة تزيد عن مُسنَّين اثنين مقابل كل طفل.

هذه بعض أرقامهم التي يعلنونها وتخيفهم، ويبحثون لها عن حلول فماذا عن أرقامنا؟

لنأخذ العالم العربي عينة بصفته قلب العالم الإسلامي:

بلغ عدد سكان العالم العربي عام ٢٠٠٠م: ٢٨٠ مليون بنسبة ٥٪ من سكان العالم، وبعدد يقارب عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية.

سكان العالم العربي هم الأكثر شباباً من بين سكان العالم، حيث الأعمار من ١-١٤ تمثل ٣٨٪ من تعداد السكان، وبنسبة نمو سكاني مرتفعة، تجعل من المتوقع أن يبلغ عدد العرب في ٢٠٢٠م: ما بين ٤١٠ إلى ٤٥٩ مليون نسمة.

لكن التعداد السكاني الشاب والمتنامي تحاصره المشكلات والتحديات؛ فنمو دخل الفرد كان الأقل عالمياً في السنوات العشرين الماضية -باستثناء أفقر مناطق العالم وهي منطقة أفريقيا الصحراء الدنيا-، وقد بلغ معدل النمو السنوي نصف في المئة، وإذا استمر النمو على نفس الوتيرة في المستقبل؛ فسيكون من نتائجه أن يحتاج المواطن العربي كي يضاعف دخله إلى ١٤٠ سنة! بخلاف مناطق العالم الأخرى، التي تحقق هذا المستوى في أقل من عشر سنوات.

في العالم العربي ٦٥ مليوناً من البالغين أميون، وثلثاهم من النساء، و١٠ ملايين طفل من الأطفال الذين هم في عمر الدراسة خارج المدرسة.

يترجم العالم العربي مجتمعاً بدوله الاثنين وعشرين، بمعدل ٣٠٠ كتاب سنوياً، وهو يعادل واحد من خمسة، مما تترجمه دولة واحدة وصغيرة كاليونان.

إن الرأسمال المتحصل من البترول، والمقدر خلال العشرين سنة الأخيرة بمبلغ ٣٠٠٠ بليون دولار؛ لم يحقق سوى نسبة نمو ضحلة، هي الأقل من بين مناطق العالم النامي كله، باستثناء أفريقيا الصحراء الدنيا. مما يبرز المفارقة الغريبة بين غنى المنطقة البارز، الذي يقابله ضعف أكثر بروزاً في النمو، وتراجع مستمر في دخل الفرد.

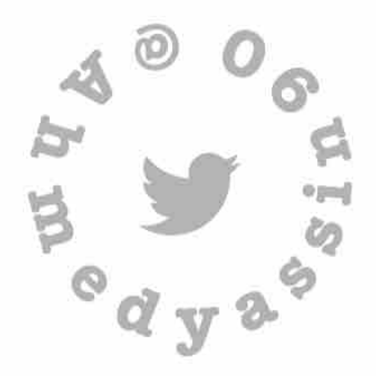
بلغ ناتج الدول العربية مجتمعة في عام ١٩٩٩م: ٥٣١,٢ بليون دولار، وهو أقل من الناتج المحلي الإجمالي لأسبانيا وهي دولة متوسطة الحجم، بلغ دخلها في العام نفسه ٥٩٥,١ بليون دولار[١].

---

(١) للمزيد من المعلومات يمكن مراجعة "تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢م".

بالتأكيد هذه أرقام الحالة المرضية المزمنة، ونحن أمام استحقاق تاريخي لا يعطي أي فرصة للتخفي، وإن لم يحضر الإصلاح الشامل الصادق حضر الاقتتال الداخلي، الذي لن يحمل الجميع حكاماً ومحكومين إلا إلى أحضان الفقر والخوف والتقسيم والتبعية معاً. إننا أمام فرصة تاريخية للصعود، إلا إذا أخلدنا إلى الأرض، وإن الله لا يهلك القرى وأهلها مصلحون، ولا مفر من الاستجابة لمطالب الإصلاح الشامل دون تأخير، وتحقيق آمال المجتمعات العربية والإسلامية الشابة المعتزة بهويتها ودينها وانتمائها، وبالإصلاح الداخلي قبل غيره، يمكن مقاومة ضغط الخارج، الذي يعيد افتتاح حقبة الاستعمار المباشر، رغم أن المعطيات المحلية والعالمية لم تعد تلائم هذا النمط من الاستعمار القديم.

تاريخ ١٤٢٤/٤/٣٠هـ


@Ahmedyassin90

■ مخاطر الامبراطورية

"إن التاريخَ -وبالدِّقةِ ذاتِها- لا يُكَرِّر أبداً نفسَه، ولكنه غالباً ما يُوجِّه عواصفَه إلى أولئك الذين يتجاهلونه كلّياً... إننا -نحن القوى العظمى من الغربيين- وُضِعنا هناك مِن قبل، ولم تكن النتائج مشجعةً. ولا فيما يتصل بسجلِّنا الأمريكيِّ الخاص، في محاولة تحويل مجتمعاتٍ أخرى، في أمريكا الوسطى، وكوبا، والفلبين. لقد استحوذنا في الأخيرتين على أقاليم، منذ أكثر من قرنٍ مضى، وحتى الآن، فإن تاريخ كوبا يَعرِفُ الخرائب، وتتلقى الفلبينُ للتو فِرَقاً جديدةً من المستشارين العسكريين الأمريكيين. لماذا نظن -نحن- بأننا سنفعلُ أفضلَ من ذلك في سوريا، أو العراق، أو العربية السعودية؟"

بول كينيدي

مخاطر الإمبراطوية(١)

يبدو أنها "لحظةُ" أمريكا، ويجب أن يمنحَنا التاريخُ وقفةَ تأمل

بول كينيدي(٢)

منذُ ستٍّ وثمانين سنةً خَلتْ، كان جيشٌ غازٍ آخر، بالغُ القوة، يَدخلُ لتوِّه بغداد. وفي الوقت نفسه، كانت أقسامٌ أخرى مندفعةً نحو الشمال الشرقي من مصر، تُباشِرُ احتلالَها لفلسطين. وستزحف هذه القوى عاجلاً، مدفوعةً باستراتيجييها ومفكريها، لتنزل فوق تراب دمشق. وتمارس تأثيراً هائلاً على إيران، ودولِ الخليج الفارسي. وتُشجع - تحتَ رداء المحرِّرين - على تغيير النظام في العربية السعودية، والأردن. وسوف ترسل رسائلَ محملةً بالأمل، في أن ينهض العالمُ العربي كلُّه مرةً واحدة، ويحظى بالعظمة، والمجد، ويُعلِنَ حينها بأن قامعيه (من العثمانيين) قد تمَّتْ هزيمتُهم. لقد كان أولئك، هم الناس المصممين على جعل الشرق الأوسط بكامله آمناً، ومستقراً؛ ليكون نافعاً للعالم -من غير شك-

(١) مجلة واشنطن بوست، ٢٠ نيسان/إبريل ٢٠٠٣م.

(٢) أستاذ التاريخ بجامعة ييل، ومدير مركز الدراسات الأمنية الدولية بها، وأحد أشهر المؤرخين الأمريكان المعاصرين.

ولكن، وبشكل خاص؛ ليكون نافعاً للدولة المسيطرة عليه، وقد كانت تلك الدولة في ذلك الحين: بريطانيا العظمى.

هذه القصةُ، تَمَّتْ روايتُها مِنْ سنينَ خَلَتْ على يدِ طالبةِ إكسفورد المُذهلة: إليزابيث مونرو، وذلك في عملِها الكلاسيكي: "لحظةُ بريطانيا في الشرق الأوسط". لقد كان العنوانُ مدروساً بعناية. وكما وَضعتْهُ، فإن فترةَ السيطرة البريطانية: "هي لحظةٌ فحسب، في حياةِ منطقةٍ، يَمتدٌّ سِياقُ تارخِها المُسجَّل، على مدى أربعةِ آلاف سنة".

وبعد أربعين سنة من نشر هذا الكتاب، ومع وصولِ اللحظة الأمريكية في الشرق الأوسط، فإن الكتابَ يأخذ بُعْداً مُخيفاً عند قراءتِه. إن الأفكارَ التي حَملها المثقفون الإمبرياليون في حِقبة الحرب العالمية الأولى، من أمثال مارك سكايز، وليو آمري، تَحمِلُ شَبَهاً عجيباً مع تلك التي لدى المحافظين الجدد من الأمريكان في هذه الأيام، وهي أَمَدَّتْ قادتَهم السياسيين بمبرراتٍ مماثلة، لسياسة التوسع. لقد أراد البريطانيون أيضاً أن يُقلِّصوا من النفوذ الفرنسي، والروسي، والألماني في المنطقة. كما أنهم كانوا يَنشُدون وُصولاً آمناً إلى نفط الشرق الأوسط، ومواقعَ لناقلاتهم، وقواعدَ

جوية. وهم اعتقدوا أيضاً بأن العبقرية البريطانية يُمكِن أن تُقدِّم تسويةً لاهتمامات العرب واليهود في فلسطين. هل يبدو هذا مألوفاً؟

كما يعلم القراء، فإن كلَّ هذا تَحَوَّلَ ليكونَ وهماً رومانسياً. والسنواتُ التي تَبِعَتْ انتصاراتِ الجيش البريطاني في المنطقة كانت سهلةً نسبياً، ولكن مجرى التاريخ تغيَّر عند ذلك. إن الفصولَ الأخيرةَ من كتاب مونرو تَحمِلُ عناوينَ مِن مثل: "طيفُ الممانعة في الشرق الأوسط"، و.."تراجعُ الغضب البريطاني"، و.."سنواتُ العقم"، و.."تشظي القوة".

لقد تنازعَ قادةُ القبائل في العراق، واضطربَ الأكراد، مع أن الانتدابَ البريطاني كان أفضلَ من سيطرةٍ مباشرةٍ تُدار من بغداد، وغذَّى السنةُ والشيعةُ خلافاتِهم القديمة، وخافَ العربُ والصهاينة أن تتصاعدَ الحملةُ العسكرية تدريجياً، ونهضَ المفكرون القوميون والمعادون للغرب، وربما لم تُهَدِّئ الخدماتُ الاجتماعية والاقتصادية - مثلَ تنقية قنوات المياه، أو زرع الأشجار- هذه الانفعالات.

هل ستفعل حِيَلُ التغيير الأمريكية ما هو أفضل، في حاضر الشرق الأوسط؟

ربما، ولكنَّ الفرصَ ليست جيدة. وحتى لو تَدبَّرت الولاياتُ المتحدة أمرَها؛ لفرض نظامٍ في الأسابيع أو الأشهر القليلة القادمة؛ فإنها إنما تباشرُ مغامرةً خطيرةً، وشاقّة. إن المنطقة ما تزال مكاناً تتقاطعُ فيه المنافساتُ والدمُ، والعداوةُ بين المسلمين السنةِ والشيعة. والحكامُ المحافظون يَتململون على عروشهم المهتزة. والأكرادُ وبقيةُ الأقليات يَندفعون بكل قوة، للحصول على حريتهم. والكرهُ لإسرائيل بالغُ الشدة، ويتمُّ إشعالُه باستمرار، بواسطة الإعلام، وعلماء الدين. إن شوارعَ المدينةِ متخمةٌ بالعاطلين عن العمل، والشبانِ القلقين. والتعدادُ السكانيُّ في العالم الإسلامي مازال يُحلِّقُ عالياً. إن جلبَ الديموقراطية إلى الشرق الأوسط -إذا كانت تعني ببساطة: صوتاً واحداً، لكل فرد- ربما يَجلِبُ -وبسهولة- إساءةَ المعاملةِ للأقليات.

إن أيَّ شخصٍ يَقرأُ تقريرَ التنمية الإنسانية في العالم العربي، الذي تَمَّ طرحُه في السنة الماضية، مِن قِبَلِ برنامجِ التنميةِ التابعِ للأمم المتحدة؛ يستطيعُ فحسب أن يكون مُحبَطاً أمام الرصيد الصلّد مِن الحكم الاستبدادي، والفساد، والإخفاقاتِ الاقتصادية،

والاحتياجاتِ الاجتماعية الماسة. ولو تَمَّتْ استعادةُ رجلِ إدارةٍ بريطاني، من حقبةِ العشرينات إلى الحياة، فإنه ربما يجدُ الأشياءَ مألوفةً جداً.

إذا كان صقورُ الإدارة الأمريكية يَملكون طريقهم -المُتمثل في الاتجاه إلى توطيد الوضع الأمريكي في العالم العربي، والقيام بتحويل مجتمعه- فإن "لحظةَ" الولايات المتحدة في الشرق الأوسط عند ذلك؛ يُمكن أن تكون بوضوحٍ لحظةً طويلة، مع كلّ ما في المسار من العواقب غيرِ المتوقعة. وبالتأكيد، فإن التاريخَ -وبالدِّقةِ ذاتِها- لا يُكَرِّر أبداً نفسَه، ولكنه غالباً ما يُوجِّه عواصفَه إلى أولئك الذين يتجاهلونه كلّياً. ولذلك، لعله أن يكون من الأفضلِ مقاربةُ هذه الأفكار بحذر، هذا إن لم يكن -وبوضوح- بنزعةٍ من التشكك؛ من أجل الحصول على قدرٍ من التواضع حولَ ما إذا كانت الحملةُ التي يقودها الغربُ لنشر الديموقراطية تُمَثِّل سياسةً حكيمة. مع ضرورة الإصرار بأن يُؤدي الكونجرس دورَه الملائم، بطرحِ الأسئلة الصعبة، ووضعِ حدودٍ معقولةٍ على سياسة الجمهوريين الخارجية المستقبلية، في هذا المنطقة المقلقة.

إن هذا يحملُنا إلى السؤال الأوسع من كل ما سبق، والذي يحدِّد وضعَ أمريكا في العالم، خلال السنوات القادمة. إن الغالبَ أو المنتصرَ بوضوح في الحرب الباردة، لم يَعُد يَشعر بعدَ ذلك بأنه مقيّدٌ عن التدخلِ في المناطقِ الحساسة، كالشرق الأوسط، وآسيا الوسطى؛ وذلك عندما تَستوجبُ مصالحُ الأمن القومي هذا التدخل. إن الولاياتِ المتحدة قوةٌ عسكرية، لا يُمكن تحديها، ولا يبدو أن ثمة في الأفق قوةً عظمى منافسة. ومع ذلك فإنها تحتاج أن تأخذَ قدراً من الراحة. إن أمريكا تَشعرُ منذ ١١ أيلول، بمستوى أقلَّ من الأمان، وتُنفق مبالغَ هائلةً على قواتِها الحربية. إنها تمتلكُ الاقتصادَ القوميَّ الأضخمَ عالمياً، ولكنها تُواجه عجوزاتٍ هائلةً في الميزانيةِ، وفي التجارة، ومنافساتٍ اقتصاديةً من الاتحاد الأوروبي، المُساوي لها في الضخامة، ومن الصين، الأسرعِ نمواً اقتصادياً في العالم. إنها تتحملُ التزاماتٍ عسكريةً في كل أنحاءِ العالم، من البلقانِ والكويتِ، حتى أفغانستانَ وكوريا. كما أن قواتِها العسكريةَ تبدو عملاقةً (كما بَدَتْ بريطانيا مِن قَبل، في ١٩١٩م)، ولكنَّ التزاماتِها تبدو مع ذلك أضخم. إن مما يثير الحيرة، أنه بينما ترتفع احتجاجات الليبراليين على نفقات الدفاع المتزايدة، ويُحَذِّر

الجيشُ الأمـريكي بصفـة دورية من التـمدّد الزائد، ويُصـابُ بالفـزع من دعوات الصقور لمغامرات جديدة، فإن ثمانيـةً من كل عشـرة من المشـاة في الجيش الأمـريكي، كـانوا في الحـرب الأخـيـرة على نظام صـدام حـسين، على رأس العـمل هناك في العـراق، أو واقـفينَ في انتظار الذهاب إلى هناك.

إن كل هذا يَصرُخ بنا أن ننتبهَ -بَدءاً من مدننا الداخليـة، وحتى المذابح في أفـريقيا الوسطى-: هـل نستطيع حقـاً أن نَتحمّلَ حمـاسةَ المُبشِّرينَ هذه، من أجل تشكيلِ الشرق الأوسط على صورتنا نحن؟

ربما ينتـهي بنا المطافُ إلى أن نُوجِد لأنفسنا حدوداً من عدمِ الأمان، أكثرَ انهيـاراً وتداعيـاً، وبصورةٍ دائمـة. إن النجاحَ في حملتنا العـسكرية على العـراق ليس الـوقتَ الملائمَ لإطلاق العنـان لمدرسـة الركض إلى الأمـام، ولنكن أكـثرَ تواضـعـاً بعضَ الشـيء فـي أهدافِنا، ولغتِنا، وإنفاقِنا، وعلاقاتِنا مع المجتمع الدولي.

لقد كنتُ مصدوماً من بضعةِ أيامٍ خَلَتْ، عندما أخبرني صحفيٌّ ألماني، بأن الكثيرَ من مواطنيه هم الآن خائفون من أمريكا. هل هذه على المدى الطويل سـيـاسـةٌ جـيـدةٌ، للقـوة الأولى في العـالم الديموقراطي؟

إن الألمانَ ليسوا وحدهم، بالطبع. إن الكثيرَ من البلدان في العالم، بما في ذلك أعضاءٌ من جبهة التحالف الحالية ضدَّ صدام حسين، هم مصعوقون من التهديداتِ الموجهةِ إلى سوريا وإيران، تلك التي قَدَّمها أعضاءٌ مؤثرون في إدارة بوش. وبخلاف مخاوفِ الليبراليين داخلَ أمريكا وخارجَها؛ فإنه ما يزال هناك على الأقل أربعةُ أسبابٍ، تَستدعي الاعتقادَ بأننا لن نكون في اتجاه الزحفِ إلى دمشق، وطهران، على الأقل ليس الآن.

السبب الأول: الاستدعاءُ المُعْلَن لبعض مجموعاتِ حاملاتِ الطائرات، التابعةِ لسلاح البحرية، وإعادةِ وحداتٍ أخرى من الجيش؛ بغرض الراحة، وإجراء الفحوص الشاملة.

الثاني: أن توني بلير، أثناء الوقت المخصص لمناقشة رئيس الوزراء، في بيت العموم البريطاني؛ أكَّد بأنه: "لا خُطط" لمهاجمة سوريا.

الثالث: أن أيَّ تحركٍ عدواني، ضد الحكومتين: في دمشق، أو طهران؛ ربما استثار استقالاتٍ جماعيةً من قطاع وزارة الخارجية، في الولايات المتحدة، بما في ذلك رئيسُها الوزير باول.

الرابع: أنه، حتى الكونغرس الحالي الكسول قد يتحرك بنفسه، ويُطالِب بإِعمال الكوابح. إن "عصا كبيرةً" لتحذير سوريا، وإيران، قد يَستمرُّ رفعُها، ولكنْ لا المارينز، ولا الجيش، في وارد المباشرة لحرب أخرى.

ومع ما قيل سابقاً، فإن الحكومة الأمريكية عند نقطة انقلاب -أو قريباً منها- في علاقاتها مع الشرق الأوسط، والعالم الإسلامي، وبقية المجتمع الدولي. وإذا أخذت الولايات المتحدة مقاربةَ الحد الأدنى؛ فإنها ربما سَتفعل كل ما يمكنها، لتقمع الصراع والاضطرابات المحلية، وتشجِّع عمليةً سياسيةً متعددةَ الأطراف، وتساعِد في المعونة الإغاثية، وتتراجع برشاقة من المشهد، مسلمةً الأمور إلى المحليين، بالإضافة إلى مكاتب الأمم المتحدة. ولكن المفكرين الصقور وصانعي السياسة داخلَ المسارِ الرئيس يعتقدون بأن أمريكا يجب أن تنتهزَ هذه الفرصةَ؛ لتحويل منطقة الشرق الأوسط، وإعادة تشكيلها. وهكذا فإن المنطقة -من وجهة نظرهم- ربما يمكن أن تُجلَب إلى العالم الحديث، وأن تَمتلِك ديموقراطيةً على النمط الغربي، مفروضةً عليها، عبرَ مزجٍ شاذٍّ بين أمرين: المثاليةِ الوِلسنية (نسبةً إلى الرئيس الأمريكي ويلسون)، والعضلات الريجانية (نسبة إلى الرئيس الأمريكي ريجان).

ربما تُفلِت سوريا وإيران في هذا الوقت، من العمل الأمريكي، ولكن، ماذا عن سنةٍ أو سنتين؟ حسناً، من الذي يدري؟

إن قائمة العمل الضخمة هذه، حين تُشاهَد من منظور تقنيٍّ عسكريٍّ ضيِّق؛ قد تبدو مجديةً أو معقولة. فمع مجموعة من حاملات الطائرات التي تَنال راحتَها ويُعاد تسليحُها، والقواتِ المسلحةِ البرية الجاهزة، والسيطرةِ المطلقةِ على الجو والاتصالات؛ فإن إلحاقَ الهزيمة بسوريا وإيران في حملة مستقبلية يبدو محتملاً (مع أن كلاً منهما ربما قاتلتْ بضراوةٍ أكبرَ مما فعل الفاسدون من جيش صدام حسين). وفي الحقيقة فإن الجيش الأمريكي ربما لا يُحقِّقُ نصراً كما ينبغي، مما سيجعل أيَّ أحدٍ يتساءل: على أي شيء يتمُّ إنفاقُ ميزانيات البنتاجون الضخمة، التي تُساوِي الآن مجموعَ ميزانيات الدفاع، في الدول الـ١٤ أوالـ١٥ التالية لها.

وفي ظل نزعةٍ توسعيةٍ كهذه، فإن حكومةَ الولايات المتحدة قد تُساعد على تأسيس دولةٍ فلسطينية جديدة، ومراقبتِها، وتأمينِها، وتضع ضغطاً على العربية السعودية، والممالك العربية المحافظة الأخرى لقبول التحول نحو الديموقراطية. وربما يُشجِّع صندوقُ النقد الدولي، والبنكُ الدولي، في تمويل هذه التحولات، مع أن

مجلس الأمن - مع حق النقض المزعج المتاح للفرنسيين والروس - ربما يُبقي الخطوطَ الجانبية مفتوحةً. وكنتيجة لكل ذلك، فإن إمدادات النفط العالمية ربما ستكون في أيدٍ آمنة، ويكون الشعب الأمريكي في كامل امتنانه، والمتحذلقون من ناقدي سياسات البيت الأبيض مرتبكين كلياً. وربما يبقى القرن الحادي والعشرون أمريكياً.

إن بعض قراء هذا المقال سوف يُهرعون الآن إلى أقلامهم، أو برامج الكتابة، مجادلين بالقول: ولماذا ليس من المحتمل أن تكون هذه الاستراتيجية الموسَّعة فكرةً جيدة؟ إن الزحف إلى دمشق -كما قد يُجادِلون- قد يُسدد ضربةً فظيعة إلى أسواق البضائع وإلى الاقتصاد الأمريكي، ويُثيرُ زوبعةَ استنكارٍ من المجتمع الدولي (قد لا يكون هناك في هذه المرة: تحالفٌ نصفٌ متعاطف، ونصفٌ مكتمل) ويُنتج خيبةً أمل ذاتِ وزن في قواتنا العسكرية، وتظل بقيةٌ محدودة من الشعب الأمريكي تُقدم الدعمَ بصورةٍ أقلَّ وأقل. لقد أُخبِرْنا على أية حال، بأن مدرسة "الاندفاع إلى الأمام" في واشنطن يُقلِّلون من أهمية تلك المطالب، ويجادلون بدلاً من ذلك بأن منطقة الشرق الأوسط قد تصبح مستقرة، ومنفتحة، ومزدهرة، بحيث أن المنتقدين

المتطرفين قد يكفون عن تذمرهم، مع كل نجاح جديد يتحقق، وأن الأمريكين سيكونون محتشدين لدعم سياسات جريئة؛ لتوسيع نطاق الديموقراطية، وبالطبع، التخلص من أماكن تطور بذور الإرهاب.

وفي الوقت الذي تثور فيه النقاشات في الاتجاهين كليهما: التأييد، أو الرفض: لحجمِ الحضور الأمريكي، ولمدةِ بقائه في الشرق الأوسط؛ فإن قصةَ "لحظةِ" بريطانيا، في هذه البلاد، تَستحق الاستعادة. إنها -من وجهة نظري- الحكايةُ التي يجب أن تُعطينا وقفةً إضافية، وذلك قبل أن نَقبل وصَفاتِ المحافظين الجدد، لتغيير العالم العربي والإسلامي. وببساطة فإننا -نحن القوى العظمى من الغربيين- وُضِعنا هناك مِن قبل، ولم تكن النتائج مشجعةً. ولا فيما يتصل بسجلّنا الأمريكيِّ الخاص، في محاولة تحويل مجتمعاتٍ أخرى، في أمريكا الوسطى، وكوبا، والفلبين. لقد استحوذنا في الأخيرتين على أقاليم، منذ أكثر من قرنٍ مضى، وحتى الآن، فإن تاريخ كوبا يَعرِفُ الخرائب، وتتلقى الفلبينُ للتو فِرَقاً جديدةً من المستشارين العسكريين الأمريكيين. لماذا نظن -نحن- بأننا سنفعلُ أفضلَ من ذلك في سوريا، أو العراق، أو العربية السعودية؟

لقد كان مشهدُ وضعِ الأمريكان يدَهم على السلطة في الفلبين، عام ١٨٩٨، هو الذي حَفَّزَ روديارد كيبلنج، الشاعر والروائي البريطاني المؤيد للاستعمار، أن يكتب أبياتَه الشهيرةَ عن الحاجة إلى سياسيين في واشنطن، يَحملون "عِبْءَ الرجل الأبيض". ولكننا غالباً ما ننسى كيف كان مُرّاً وعميقاً ما أَحسَّ به كيبلنج، فيما يتصل بالجحود والكراهية، اللتين كان مقتنعاً بأنَّ الحكمَ الأجنبيَّ سيُحضِرُهما معه. اعتقد كيبلين -المولود والناشئ في الهند، المحكومة من البريطانيين- بأنه كان هناك شِقَّان من العِبء: المسؤولية التي لا مفر منها، والنتائج غير المرغوب فيها:

"احملوا عالياً عِبْءَ الرجلِ الأبيض..

واحصدوا جائزتَه العتيقة:

اللومَ، من أولئك الذين -أنتم- أحسنتم إليهم

البغضاءَ، من أولئك الذين -أنتم- حرستموهم

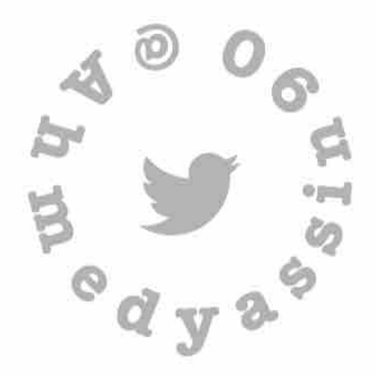
صرخةَ الجماهير تعلو، وأنتم تسيرون بهم

وبتمهلٍ -ويا للألم- في اتجاهِ الضياء:

"لماذا -ياهؤلاء!- جلبتمونا من العبودية..

مِن ليلِنا المِصريِّ المحبوب؟!"

ربما يُمكن لهذا المقطعِ الشعري، أن يكون مؤطَّراً ومُعلَّقاً في أروقة المؤسسات المختلفة في واشنطن، فمنها أَخذَ الطموحُ في إعادة صياغة العالم.. ينهمرُ بغزارة.


@Ahmedyassin90

■ روما جديدة .. قدس جديدة

"إن الصراع الموصول بما بعد (١١) أيلول، ربما يَتَحَدَّد بوصفه حرباً ضد الإرهاب، وضد هؤلاء الذين "يكرهون حرياتنا"؛ ولكنه في الأصل ليس أقلَّ من صراعٍ يُشَنُّ دعماً للسيادة الأمريكية، وحربٍ جَعَلَت الولاياتِ المتحدة التي تَحَقَّقَ قدرُها بصفتِها "أورشليم الجديدة"، مستعدةً كما لم تكن من قبل، لممارسة سلطتِها بصفتها "روما الجديدة".

آندرو باسيفيتش

روما جديدة .. قدس جديدة[1]

آندرو باسيفيتش[2]

لم يعد هناك ما يغذي الاتهامات والإنكار، فقد أصبحت الإمبريالية الأمريكية مؤخراً مسألةً مهمةً، يجب التفكير بفوائدها. وبحسب قادة الرأي، مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست، فإن الفكرة التي تؤكد أن الولايات المتحدة تُدير سلطةً كونية؛ قد حققتْ شيئاً من القدرة على اكتساب الاحترام.

إن هذا تطور مفيد جداً؛ لأن تقديم فكرة الإمبراطوية فقط إلى الرأي العام؛ جَعلَ مِن الممكن الإشارة إلى مواضيع أكثر ضغطاً، عند التفكير ملياً، بالفروق اللفظية بين: الامبراطورية، والهيمنة، "والقيادة العالمية". "فما هي بالضبط طبيعةُ حقبةِ السلام الأمريكي (Pax Americana)؟ وما هو هدفها؟ وما هي التحديات والأخطار

(١) مجلة WQ الأمريكية، ربع السنوية، عدد صيف٢٠٠٢م.

(٢) أستاذ في الدبلوماسية الأمريكية والتاريخ العسكري، يشغل حالياً: أستاذاً في قسم العلاقات الخارجية بجامعة بوسطن، ورئيس مركز العلاقات الخارجية، وأستاذاً في الدراسات الدولية المتقدمة بجامعة هوبكنز، والمدير التنفيذي لمعهد السياسة الخارجية، والمدير التنفيذي والمشارك في التأسيس لمركز التعليم الاستراتيجي.

التي تنتظر الولايات المتحدة في إدارة نفوذها؟ وما هي التكاليف الأخلاقية والمادية المحتملة للإمبراطورية؟ ومن سيدفعها؟ هذه هي الأسئلة التي بدأت الآن تجد مكاناً في أجندة السياسة الخارجية الأمريكية.

وبما يتناسب مع أمةٍ تأسَّستْ على الاعتقاد بتفردها؛ فإن الإمبراطوية الأمريكية ليست كأي إمبراطورية أخرى في التاريخ. في الحقيقة، فإن المقاربة الأمريكية الغريبة للإمبراطورية، تقدم تأكيداً صارخاً على التفرد الأمريكي. وبالنسبة للمبتدئين فإن هذا الأسلوب يتجنب الحكم المباشر على الشعوب المذعنة. وبعيداً عن الملكيات القليلة المتبقية من استيلائنا القليل والشاذ على الأراضي في عام ١٨٩٨م، فإنه لا وجود للمستعمرات لدينا. ونحن نفضل الدخول والتأثير، أكثر من التملك. إن إمبراطوريتَنا إمبراطوريةٌ غير رسمية، لا تتكون من بلدان تابعة، وإقطاعيات، وإنما من دول متساوية من الناحية الشكلية. وعند ترؤسنا لهذه الامبراطورية، فإننا نفضِّل أن نمارس سلطتنا بشكل غير مباشر، وغالباً ليس من خلال المؤسسات الوسيطة، حيث تتمتع الولايات المتحدة بدور مهيمن، دون استخدامٍ للسيطرة المباشرة. (أمثلة ذلك: منظمة حلف

شمال الأطلسي ، ومجلس الأمن الدولي ، صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي).

ورغم أننا نتمتع بتفوق عسكري منيع، ولا يوجد ما يفرض علينا استخدام القوة، فإننا نفضل الإغراء بدل الإكراه، وعوضاً عن فرض إرادتنا بالسيف؛ فإننا نعتمد على جاذبية "الطريقة الأمريكية في الحياة" في الانتصار على المشككين، وتفتيت الأعداء. كما أن احترام واشنطن يتم طواعية في مناطق النفوذ الأكثر قيمة. وهكذا فإن أوروبا (ما بعد الحرب العالمية) التي ترى في الولايات المتحدة الحامي، وأداة الازدهار الاقتصادي معاً، تسعى بنشاط وراء النفوذ الأمريكي، وبذلك تضع الأساس "لإمبراطورية بالترغيب"، رغم أن الازدهار الأوروبي تمت استعادته منذ فترة طويلة، واختفت التهديدات الأمنية لأوروبا. ويسود وضع مشابه في المحيط الهادي، حيث اليابان ودول أخرى أكثر رغبة في مجاراة النظام الأمني المحكوم أمريكياً من كونها قادرة على الدفاع عن نفسها.

إن كل القوى الاستعمارية متشابهة في تكريسها المشترك لفرض الإرادة. لكنها تختلف عن بعضها في القيم التي تّدعى زراعتها في مملكتها. لدرجة أن إمبراطوريات مثل أسبانيا وفرنسا

وبريطانيا العظمى عرَّفَتْ هدفَها (على الأقل جزئياً) على أنه: نشرُ منافع الحضارة الغربية. والإمبراطوية الأمريكية المعاصرة تتأهل الآن بصفتها خليفتهم التاريخية، لكن بينما تخصصت مغامرات هذه الإمبراطوريات السابقة في: هداية الوثنيين، أو تنوير البدائيين؛ فإن القيمة القصوى والطموح النهائي للسيادة الأمريكية هي: الحرية. وكما قال توماس جيفرسون، إن إمبراطوريتنا هي "إمبراطورية الحرية".

منذ البداية رأى الأمريكيون الولايات المتحدة وبوعيٍ ذاتيٍّ بصفتها مشروعاً ذا مغزى إلهي، ترعاها العناية السماوية، ويمتد إلى ما هو أبعدُ مدىً من حدود الدولة القومية. لقد تشكلت أمريكا منذ بدايتها -كما ورد في كلمات الشاعر فيليب فرينغو- على أنها: "قدسٌ جديدةٌ هَبَطَتْ من الجنة". لكن الخلاص الذي وعدت به كنيسة الله هذه، التي على الأرض، كان: الحرية، وليس الحياة الخالدة. وباسترجاع كلمات جورج واشنطن في أول خطاب له بعد توليه الرئاسة في عام ١٧٨٩م؛ فإن"المحافظة على النار المقدسة للحرية" -كما صَرَّح- قد تَمَّ "إيداعُها في أيدي الشعب الأمريكي". إن الأولوية في نهار واشنطن لا تكمن في نشر الشعلة المقدسة، إنما

وببساطة في المحافظة عليها كي لا تخمد، لتعكس بذلك تقييماً واقعياً، لمقامِ جمهوريةٍ فتيةٍ بين أمم العالم. وهي الآن قد افتقدتْ القدرة على العمل لتحقيق ما هو أكبر من الحرية النموذجية.

خلال فترة الـ (٢٠٠) سنة القادمة، فإن ذلك قد يتغير. ففي الوقت الذي سقط فيه جدار برلين في عام ١٩٨٩م، وأدّى سقوطُه إلى الاقتراب من قرنٍ ذي صراعٍ ملحمي أيديولوجي؛ ارتقت القدسُ الجديدة، إلى مرتبة مُستحَقَّةٍ بين القوى العالمية. لقد كانت الولايات المتحدة مهيمنة سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وفوق كل ذلك عسكرياً. وفي الواقع فإن "القدس الجديدة"، أصبحت "روما الجديدة"، تلك الهوية التي لم تَحلّ محلَّ الغاية المُؤسِّسة لأمريكا، وإنما دلت على تَحقُّقِها، وتحققِ التاريخ نفسه. بالنسبة للرئيس بيل كلينتون فإن اللحظة قد دلَّتْ على أن اكتمال الختام كان على أيدينا. ولم يعد يبدو سخيفاً إدعاءُ (توماس بين) بأن الأمريكيين يملكون ضمنَ قوتهم إعادةَ تشكيل العالم من جديد. لقد أعطى الخلاصُ إشارتَه. وفي عبارة (رينهولد نيبر) الموحية: لقد وقفتْ الولايات المتحدة مستعدةً لإكمال رسالتها في "تعليم البشرية، على طريق حجها إلى الكمال".

رأى الأمريكيون الأوائل أن مهمة تعليم البشرية هي توجيهات من سلطةٍ عليا. فيما بعد، حمل الأمريكيون العبء من خلال شعور عميق بالمصلحة الذاتية. ورغم الإشارات المتكررة إلى الحرية، في الوصف المتضمِّن للوجهة النهائية للرحلة، وفي تسويغ استخدام القوة الأمريكية، فإن مهندسي السياسة الأمريكان في القرن العشرين لم ينظروا أبداً إلى الامبراطورية، بصفتها ممارسةً لنزعة حب الغير، أو إيثار الآخرين. بل هم -على الأقل منذ زمن وودرو ويلسون- قد استنتجوا أن الأمريكيين، بحمايتهم فقط لحريات الآخرين، والدفاع عنها؛ يُمكِن أن يَضمنوا تماماً سعادةَ أمتهم الذاتية، وأن الأمرين مترابطان، بصورة لا فكاك منها.

ومن وجهة نظر ويلسون وورثته؛ فإن التمييز بين المثاليات الأمريكية (المفترض أن تكون عالمية) والمصالح الأمريكية (التي أصبحتْ بشكلٍ متزايد ذاتَ مدىً عالمي) كان من أجل التصنيف، من دون اختلاف بينها. لقد كانت حقيقةً واضحةً أنَّ الحملات الكبرى المتعاقبة للدفع بهذه المثل -في مواجهة العسكرية الألمانية في عام ١٩١٧م، والفاشية، والإمبريالية اليابانية في عام ١٩٤١م، والشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية- قد نتجَ عنها في الولايات

المتحدة قوةٌ متراكمةٌ، لا سابق لها. وعندما انقشع الدخان؛ حَدَّدَت الحقيقةُ الواضحة السياساتِ العالمية: أمةٌ واحدة، تمتلك وعياً مميَّزاً، عن الكيفية التي ينبغي أن يُدار بها العالم؛ وَقَفتْ مثلَ عملاقٍ ضخم، يَقبَعُ العالمُ بين قدميه.

ولم يكن مدهشاً أن ينظر الأمريكيون إلى توزيع القوة، على أنه نوعٌ من الحكم الكوني، وتأكيدٌ بأن الولايات المتحدة كانت (بحسب العبارة المفضلة عند السياسيين في التسعينات) في "الطريق الصحيح للتاريخ". لقد قدَّم التفوقُ الأمريكي مقياساً واحداً لتقدم البشرية نحو الحرية، والديمقراطية، والسلام العالمي. أما هؤلاء القلة الذين يُصرِّون على التفكير بطريقة أخرى -وحسب الوصف الأمريكي لهم: "أنظمة الحكم المارقة"- فإنما يُشيرون إلى أنفسهم، ليس بصفتهم أعداء للولايات المتحدة فحسب، وإنما بصفتهم أعداء للحرية ذاتها.

لقد أظهرت الأحداث البربرية (الوحشية) في (١١) أيلول، أن الرحلة المقدسة نحو الكمال، كانت بعيدة عن بلوغ نهايتها. لكن الذي لم يَرِدْ على الخاطر ولو للحظة؛ هو أن تُؤدي تلك الأحداث، إلى تساؤلِ قياداتٍ سياسيةٍ أمريكيةٍ، عن مدى مناسبة المشروع نفسه.

وإن يكن ثمـةَ من شيءٍ تمَّ تعـزيزُه؛ فـإن أحـداث (١١) أيلول، قـد عـزَّزتِ التـصـميـمَ على إكمـال الرحلة. وفي العـرض الذي قدم فـيـه جـورج دبليو بوش، شـرحَه للهجـوم على مركـز التجارة العـالمي، وعلى البنتاغـون، رفضَ القبولَ -أو حتى الاحـتمال- بأن الهجـومَ على رموز القوة الأمريكية: العسكرية، والاقتصادية؛ يمكن أن يُحدِث أيَّ تأثيرٍ على كيفيةِ توظيف الولايات المتحـدة لقوتها. لقد اختار بدلاً من ذلك أن يُؤطِّرَ قضيـةً في متناول اليـد، من خـلال مـصطلحـات "الحـرية": لماذا هم يكرهوننا؟ "إنهم يكرهون حرياتنا" كمـا يشـرح بوش. وهكذا حوَّل الرئيس ببراعة الانتباهَ عن عواقب الامبراطورية.

لقد أصبح (١١) أيلول مناسبةً لحرب جديدة، أوسع بكثير في مـداها من أيٍّ من التـدخـلات العـسكرية التـافهـة، التـي أبقت الجنود الأمـريكيين، يجـوبون هنا وهناك خـلالَ العقـد السـابق. وفي أمـاكن كثيرة، تم توصيف هذا الصراع على أنه يُساوي حرباً عـالميـةً أخرى. إنه الوصف المنـاسب؛ فـبينمـا تستمـر الحـملة العـسكرية الأمـريكيـة متعـددة الوجوه فـي الانتشـار، يصبـح واضحـاً بأن إدارة بوش لا تنوي ببـسـاطـة، أن تعـاقب هـؤلاء الذين ارتكبـوا الهـجـمـات على نيـويورك وواشـنطـن، أو تَحُــولَ دون ارتـداد أي حــوادث مماثلة. إن أهـداف

الحرب الأمريكية الفعلية هي أكثر طموحاً بكثير. إن الولايات المتحدة تَنشُد استئصالَ الرعب المحيط بالعالم. وهي تَنشُد تذويبَ الإسلام الراديكالي، والأمم التي تشكل محورَ الشر، بحيث تكون غير قادرة على تهديد النظام العالمي.

ولكن مازال هناك المزيد: فقد استخدمت إدارة بوش الحربَ على الإرهاب، على أنها فرصة لإدارةِ ماهو -في الواقع-: استفتاءٌ على أسبقية الولايات المتحدة عالمياً. وفي هذه الحالة -كما شدد على ذلك الرئيس بوش- يجب على الجميع أن يعلنوا الولاء: فالدولُ، إما أن تتحالف مع الولايات المتحدة، أو تلقى نصيبَها مع الإرهابيين، ولها ضِمْناً أنْ تتوقع نصيباً من قَدَرِهم. وكناتجٍ أخير للحادي عشر من أيلول، أمسكت الإدارةُ بالفرصة لإشهارِ عقيدة بوش الجديدة، مُدمِجَةً فيها أفكاراً جديدةً، مِنْ مِثل: "الدفاع الذاتي الاستباقي"، و"الردع الاستباقي". ومن خلال عقيدة بوش، فإن الولايات المتحدة -التي تجمع الآن (حسب كلمات ستانلي هوفمان) بين دوري: "عمدة البلدة وقت الحسم، والمُبشِّر الذي يَنقل الآخرين عن عقائدهم"- تَطرحُ مطالبتَها بامتيازات أوسع، لتوظيف القوة في إعادة ترتيب العالم.

وباختصار، فإن الصراع الموصول بما بعد (١١) أيلول، ربما يَتَحَدَّد بوصفه حرباً ضد الإرهاب، وضد هؤلاء الذين "يكرهون حرياتنا"؛ ولكنه في الأصل ليس أقلَّ من صراعٍ يُشَنُّ دعماً للسيادة الأمريكية، وحربٍ جَعَلَت الولاياتِ المتحدة التي تَحَقَّقَ قدرُها بصفتِها "أورشليم الجديدة"، مستعدةً كما لم تكن من قبل، لممارسة سلطتِها بصفتها "روما الجديدة".

لهذا، عندما تَعهَّد الرئيسُ بوش، في كانون أول ٢٠٠١م قائلاً: "سوف تقودُ أمريكا العالمَ للسلام"؛ فإنه لم يكن ببساطة يُحيِي بعضَ التفاهات الولِسنية (نسبةً إلى الرئيس الأسبق ويلسون) الفارغة. لقد كان يؤكِّد على الهدف الاستراتيجي الأساسي للأمة، وعلى طريقةٍ مميزةٍ من العمل لإنجازه. إن الولايات المتحدة سوف "تقود": المقصود أنها سوف تُواظِب على جهودها في تجديد النظام العالمي، موظِّفةً لهذا الهدف القوةَ المتفوقةَ، التي اكتسبتها خلال قرنٍ من سطوتها (والتي لا تنوي التخلي عنها في القرن الذي بدأ للتو). وستقومُ بذلك، بعينٍ تتطلع إلى تحقيق "السلام" الدائم، والمقصود: عالمٌ منضبطٌ أو منظَّم، مساعدٌ للمشروع الأمريكي، ومحبٌّ للقيم الأمريكية، وأيضاً يُخلِّدُ وضعَ أمريكا، بصفتها قوةً

عظمى وحيدة. وقد كانَ هذا هو الهدف الأمريكي، قبل ١١ أيلول، ويظلُّ هو الهدف لإدارة بوش في الوقت الحاضر.

ما مدى انتشار ا لدعم لهذه المغامرة الاستعمارية؟

رغم ميل السياسيين الأمريكيين، مِن زمن ويلسون حتى أيامنا هذه، للجوء إلى لغةٍ مشفرةٍ، حينما يَتم طرحُ أسئلةٍ تتعلّق بالقوة؛ فإن المشروع ليس بعضَ مؤامرةٍ، تُحتَضَنُ من قِبَلِ أعضاءٍ من النخبة، ثم تُزيَّف عند ذلك، على مواطنين لا يتشككون. إن صورةَ ولاياتٍ متحدةٍ أمريكيةٍ تقودُ العالمَ إلى "السلام" (ومن المناسب تفهم ذلك) تَفْرِضُ بالفعل، توافقاً عريضاً في كل قطاعات المجتمع الأمريكي. فقط، هامشٌ من المفكرين، والناشطين، والراديكاليين ذوي التوصيف الذاتي للعالم؛ ربما يشعرون بالاستياء مِن مَشهدِ عالَمٍ، تتمُّ إعادةُ صياغتِه في المخيال الأمريكي، ويُحرَس بالقوة الأمريكية، ولكن الفكرةَ تعمل جيداً هناك، على منابر الخطب الانتخابية، طالما أن الجهدَ المتطلَّب -على الأقل- لا يُمثِّل ضرائبَ باهظة. والحقيقة هي أن الأمريكيين يُحبّون كونَهم الرقم واحد، وقد بدأوا منذ نهاية الحرب الباردة، يتقبَّلون هذا الوضع، بوصفه حقاً مستحقاً لهم. إضافةً إلى ذلك، فإن أحداً ما، لابد أن يقودَ العالم. ومَنْ غيرُهم يستطيعُ أن يقومَ بهذا العمل؟!

ما هي مطامحُ الامبراطورية؟

في بعض المجالات، فإن الكيفيات التي ساهمت في نجاح الأمة في مساعٍ أخرى، قد تَخدِم الولاياتِ المتحدة جيداً في هذا المجال. وبالمقارنة مع المواطنين البريطانيين في عهد الملكة فيكتوريا، أو في عهد روما خلال حكم القياصرة؛ فإن الأمريكيين سيَرْتَدون لباسَهم الامبراطوريَّ برشاقة. فهم يَشرعون في إدارة أعمال الإمبراطوية مع نقصٍ غيرِ معتادٍ في التظاهر. ورغم أن واشنطن دي سي قد أصبحتْ تُفرِزُ أهميتَها الذاتية، بوصفها عاصمةً امبراطورية؛ فإن أولئك الذين يعيشون في محيطها، قد قاموا حتى هذه الحدود على الأقل، بتطوير شهية محدودة فحسب: للأبهة، والامتيازات الخاصة، والبروز. إن من غير المحتمل أن نستنفدَ أموالَنا في نَصْب إهراماتٍ، أو صروح أخرى لعظمتنا الظاهرية. إن الأمريكان في مسائل الذوق، يميلون إلى ما هو شعبي، أو بسيط، أكثرَ من الميل إلى ما هو أروستقراطي أو نخبوي. إن إفراطاتِنا تَنبثِق من حماساتنا -الخشنة بصورة متكررة، والمتحولة باستمرار- أكثر من انبثاقها من أيٍّ من الأمراض الفرنسية التعجيزية: احترام الذات المبالغ فيه، وتضخم الفكر، والنزعة الساخرة، والحسد. وبعد

احتساب كافة الظروف؛ فإن الأفكار والمواقف الاستعمارية لأمريكا تظل براجماتية أو مصلحية، وهي -من دون مباهاة- ربما تُدلِّل، على أن صعود الأمة إلى وضع القوة العظمى، لم يُلغِ كلياً حتى الآن أصولَها الجمهورية. وفوق ذلك كله فإن المجتمع الأمريكي بالمقارنة مع المجتمعات المقابلة في كل مكان في العالم المتطور، يبدو اليوم وبصورة ملحوظة قوياً، ويحتفظ بمقدرته المذهلة على التكيف، والإبلال، وإعادة اختراع ذاته.

ورغم هذا الذي قلناه؛ فإن الولايات المتحدة عندما تتجه لمساندة الباكس أمريكانا (حقبة سلام طويل عبر الهيمنة الأمريكية)؛ فإنها ستواجه بضعة تحديات:

أولاً: لا أحد حقاً يتحمل المسؤولية، فامبراطوريتُنا من دون إمبراطور. مع أن الأمريكيين في أوقات الأزمات، يتطلعون إلى الأعلى من أجل القيادة -وهي ظاهرة استفاد منها جورج دبليو بوش كثيراً بعد (١١) أيلول- ثم إن قدرة أيِّ رئيسٍ على توجيه شؤون السيادة الأمريكية تبقى محدودة، مِن جهتي: الدرجة، والفترة الزمنية معاً. ورغم أن رئيس الولايات المتحدة يُوصَف بشكلٍ روتيني، بأنه أقوى رجل في العالم، إلا أنه في الحقيقة، يتمتع بمستوى

محدودٍ من السلطة، وحريةِ التصرف. إن نظامَ الحكم الذي يُحدِّده الدستور، يُعطِي تقييماً عالياً للفصل والموازنة، بين الأفرع الثلاثة الرئيسة، التي يَتَنافس كلٌّ منها مع الآخر في واشنطن، ولكنْ أيضاً بين الحكومة الفيدرالية، والوكالات الموجودة في الولاية والمستويات المحلية. وبالكاد، يكونُ أقلَّ أهميةً، تأثيرُ المشاركين الآخرين في الحرية السياسية، المكفولة لكل الأحزاب، والمجموعات المهتمة، واللوبيات، والبيروقراطية المحمية، والإعلام، الذي يستطيع في أي موضوع مُعطىً أن يَفرِض على المدير التنفيذي الرقصَ على أنغامه. إن فكرة "رئاسة امبراطورية" هي مجرد قصة خيالية، ولأجل ذلك يمكن للأمريكان أن يكونوا سعداء بها. ولكن الحقيقة التي تبقى ماثلة للعيان هي أن نظام الأمة السياسي ليس مصمَّماً لإدارة امبراطورية.

ثانياً: مع أن الدعم الشعبي للامبراطورية حقيقي، إلا أنه وعلى الأرجح عرضي أو طارئ. إن ورثة ما يدعى غالباً بالجيل العظيم لديهم رغبةٌ محدودةٌ في التضحية. إذ يَتوقَّع هؤلاء فوائدَ من الإمبراطوية تفوق الأعباءَ والمسؤوليات. إن الالتزمات المعتادة للسياسة الإمبراطوية -على سبيل المثال: الحفاظ على السلام في

البلقان، أو حفظ موطئ القدم الأمريكي في آسيا- ليست أسباباً تُلهِم متوسطَ الأمريكيين، بالهرولة إلى مكاتب التطوع المحلية. وحتى نضعَها من دون تنميق، فإن أسباباً كهذه ليستْ من النوع الذي ترغب أعدادٌ كبيرةٌ من الأمريكان، في الموت من أجله.

وبهذا الخصوص، فإن المنطقة الأكثر حساسيةً في الامبراطورية، ليستْ في احتمالِ أنْ تُصبِح الصينُ قوةً عظمى منافسة، أو في وجود شبكاتٍ إرهابيةٍ جديدةٍ تَحُلُّ محلَّ القاعدة - هذه التطوراتُ يُمكِن معالجتُها- ولكنها بالأحرى في رغبةِ الشعب الأمريكي، المشكوك فيها، في دفع الفاتورة الامبراطورية. إن صانعي السياسة ذوي الحساسية العالية تجاهَ حدودِ الدعم السياسي -كما ظَهرَ بوضوحٍ بعدَ تأثيرِ ليلةٍ واحدةٍ في مقديشو في ١٩٩٣م- قد دَرَّبوا أنفسَهم عَبْرَ العقدِ المنصرم، وبقوة، على تمرير هذه الفاتورةِ بعيداً، نَحْوَ آخرين غيرِهم.

وفي هذه الأثناء، فإنهم قد اخترعوا تقنياتٍ متخيّلةً، من أجل التأكد بأن الدم حين يَنزِف، فإنه لن يكون أمريكياً. ومِن ثَمَّ ظَهَرَتْ نزعةُ الاعتمادِ على أسلحة التكنولوجيا المتقدمة، التي تُطلَق من بُعدٍ لا تَصِلُ إليه أيادي العدو، والاعتماد على وكلاء لمعالجة أيِّ عملٍ

قـذرٍ على الأرض، أو الاعـتـمـاد -وبصـفـتـه مـلاذاً أخـيـراً- على مجموعات منتقاة، ومحترِفة، من الجنود الذين يَتمُّ وبازدياد، فصلُهم عن المجتمع المدني.

وعلى مـدى العقد المنصـرم، كـان هذا الجـهـد للمـحـافظة على الإمبـراطوية الأمـريكيـة بهذا الثمن الـرخيـص -مع استثناء بارز في أحداث ١١ أيلول- يَتمتَّع بنجاح ملحوظ. ومهما استطاع صانعو السـيـاسـة الأمـريكيـة أن يُعـززوا هذا النجـاح بشكل غـيـر مـحـدود؛ فسيبقى إشكال واحد مفتوح، خصوصاً عندما يتم إحراز كل انتصار بسهولة ظاهرة -البوسنـة، كوسوفـو، أفغـانستان...- لأن هـذا النجاح سيُقَوِّي فحسب، توقعاتِ الجمهور، بأن العمليةَ القـادمةَ سوف تكون أيضاً أنيقةً، ومرتبةً، وخاليةً من الأخطاء.

ثالثاً: التحدي المواجِه للسيـادة الأمريكيـة، فيمـا يخص الحـرية ذاتهـا. إذا كـان السـلام (وأمـن الولايات المتحـدة الأمـريكيـة) يتطلبـان بأن يكون العـالم حـراً، كـمـا يُحـدِّد الأمـريكان "الحـرية"، فـإن خصوصيات هذا التحديد عندئذ؛ سوف تُعقِّد إدارةَ الامبـراطورية، في طرقٍ نالت حتى الآن انتباهاً غيرَ كافٍ. وإليك المأزق:

كما يُعيد الأمريكانُ -وباستمرار- اختراعَ أنفسهم ومجتمعهم؛ فإنهم أيضاً يُعيدون -وفي تحول راديكالي- اختراعَ ما يَعنونه بـ:"الحرية". إنهم لا يعنون الاستقلالَ فحسب، أو حتى الديموقراطية، وحكمَ القانون. إن الحرية -كما يفهمها الأمريكان اليوم- تشملُ على الأقل صيغتين أُخْريين واسعتين: تعظيمُ الفرصِ لتخليقِ الثروة، وإزالةُ أيِّ عوائقَ تَظَلُّ تَحتجِزُ الذاتَ المميّزة، مهما كانت هذه العوائق. لقد أصبحت الحرية تعني: معاملات السوق، وقيم السوق بصفتها مقدسة: (الأجندا الاقتصادية لليمين)، ويحتفلون بالاستقلال الفردي: (الأجندا الثقافية لليسار).

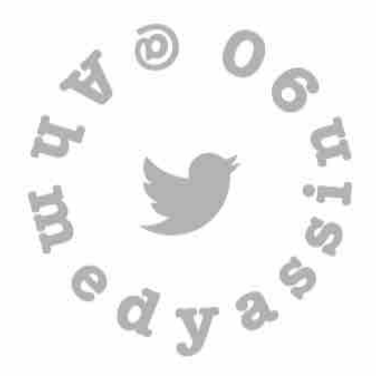
لقد أصبح مما لا يحتاج إلى نقاش، أنَّ الالتزام بمبادئ المشروع الحر يقدم الوسائل الأكثر نجاعة لتوليد الغنى. ومن دون سؤال أيضاً، فإن تنظيم المجتمع حول مبادئ كهذه يُقوِّض منابع أخرى للنفوذ. وهذا المنظور يحشد أولئك الذين هم في مجتمعات تقليدية، ودينية بصورة خاصة، ممن يرفضون هجر النظام القديم، في صف الاعتراض على الولايات المتحدة.

والمعاني المتضمنة في عزل آخر التقييدات على المظهر الفردي؛ هي أكبر من ذلك بكثير. إن الركض المعاصر وراء الحرية

قد ألقى بتأثيره على العقائد، والتنظيمات، والمؤسسات، التي كان ينظر إليها ذاتَ مرةٍ على أنها أساسية وحتمية. إن مسألة النوع، والنشاط الجنسي، والهوية، وتعريف الزواج والعائلة، وسؤال البدايات، والمعنى، والتقديس، وهشاشة الحياة، كلها مما يتم الآن إعادة فحصه من جديد، في المجتمع الأمريكي حتى يتم ملاءمتها مع متطلبات الحرية.

إن بعض الناس ينظر إلى ذلك بصفته مشهداً للتسمم، وآخرين يرونه قاعدةً لحرب ثقافية أهلية. وفي الحالين كليهما، وبمقتضى فهمنا اليوم لما تستلزمه الحرية، فإن الأمريكان يباشرون بذل الجهد لإعادة هندسة الفرد الإنساني، وإعادة تنظيم العلاقات الإنسانية الأساسية، وإعادة بناء المؤسسات الإنسانية، التي وُجدت خلال ألفية كاملة.

وإن إعطاء حكم سريعٍ على هذا المشروع ليس في الإمكان بعد. ولكن من الممكن بالتأكيد تقدير أنَّ أحدا في العالم يشبِّهه بالخطو بعيدا عن هاوية أخلاقية، وينظر إلى القدس الجديدة بعين القلق. إن مخاوفهم، والمقاومة لما يولده الخوف، يضمن إلى حد كبير بأن فيالق روما الجديدة ستكون منشغلة لبعض الوقت القادم.


@Ahmedyassin90

■ إنها البداية فحسب

"إن المهمة تبدأ في بغداد، ولكنها لن تنتهي هناك ... إننا نقف على حافة منحنى لحقبة تاريخية جديدة ... ومن الواضح أنها تشمل ما هو أوسع من العراق. إنها حتى أوسع من مستقبل الشرق الأوسط، والحرب على الإرهاب. إنها تحدد نوع الدور الذي تنوي الولايات المتحدة أن تؤديه في القرن الحادي والعشرين."

لورنس إف كابلان

إنها البداية فحسب[١]

هل العراق رصاصة البداية في حرب إعادة تشكيل العالم؟

روبرت دريفس[٢]

على مدى شهور، قيل للأمريكيين بأن الولايات المتحدة تتجه لخوض حرب ضد العراق؛ لنزع أسلحة صدام حسين، وطرده من السلطة، وإزالة مخزونه الاحتياطي المزعوم من أسلحة الدمار الشامل، ومنع بغداد من ابتزاز جيرانها، أو مناصرة الجماعات الإرهابية. لكن صقور إدارة بوش، خصوصاً المحافظين الجدد، الذين يُزَوِّدونَ القوةَ الدافعةَ للحرب، يرون بأن النزاع مع العراق هو أكثر بكثير من هذا. إنه حدث بارز صُمِّم لخلق صدمة مزلزلة تموج في أرجاء المنطقة، وحول العالم، وتبشر باقتراب حقبة جديدة من النفوذ الامبراطوري الأمريكي. كما أنه من المحتمل أن يُدخل الولايات المتحدة في نزاع مع دول عديدة في الشرق الأوسط. إن هؤلاء الذين يعتقدون بأن القوات المسلحة الأمريكية تستطيع أن

(١) مجلة: ذي أميركان بروسبكت، المجلد ١٤، العدد٤، نيسان/إبريل، ٢٠٠٣م.

(٢) من الكتاب الدائمين في مجلة أميركان بروسبكت، ومجلة ماذرجونز الأمريكيتين. وفاز في ٢٠٠٢م بلقب: "صاحب أفضل عمل صحفي بحثي مطبوع".

تكمل حرباً منظمة في العراق؛ دون أي انتشار للمعركة خارج الحدود العراقية؛ سيكونون -على الأرجح - مخطئين.

"أعتقد بأننا سنكون مُجبرين على خوض حرب إقليمية، شئنا ذلك أم أبينا"، هذا ما يقوله مايكل ليدين، وهو موظف أمريكي سابق في الأمن القومي، واستراتيجي مهم من بين المجموعة المسيطرة من صقور المحافظين الجدد، الذين تَبَوَّأَ العديدُ منهم مناصبَ رفيعة في الحكومة الأمريكية. يقول ليدين مؤكداً بأن الحرب ضد العراق لا يمكن احتواؤها، وأن المنطق الشديد للحرب العالمية على الإرهاب سيقود الولايات المتحدة لمواجهة شبكة متسعة من الأعداء في المنطقة: "عاجلاً، وحالما نَحُطُّ بالعراق، فإننا سنواجه الشبكة الإرهابية بأكملها". مضيفاً بأن هذا يشمل: منظمة التحرير الفلسطينية، وحزب الله، وحماس، والجهاد الإسلامي، وتشكيلة من الجماعات الإسلامية المنشقة، المدعومة من قبل إيران، وسوريا، والسعودية، والتي يُمكِن تسميتُها بـ:"أسياد الإرهاب"، ويُضيف: "إنها قد تتحوّل لتكون حرباً لإعادة تشكيل العالم".

وفي الشرق الأوسط، فإن تغيير النظام الوشيك في العراق ليس سوى خطوة أولى في إعادة تنظيمٍ كلية للمنطقة بأسرها، وفقاً

للمحافظين الجدد، الذين بدأوا بسعادة إطلاقَ لقب: "عصابة سرية" على أنفسهم. ومثل لعبة الدومينو (حيث يتسبب حدث بتعاقب عدة أحداث مشابهة) فإن الأنظمةَ في المنطقة -ابتداءً بإيران، وسوريا، والعربية السعودية، ثم لبنان، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأخيراً السودان، وليبيا، واليمن، والصومال- مرشحةٌ لأن تستسلم، أو تنهار، أو تُواجِه العملَ العسكري الأمريكي. ولهذه البلاد قال زعيم العصابة السرية ريتشارد بيرل، العضو المقيم في مؤسسة المشروع الأمريكي (AEI) ورئيس لجنة سياسة الدفاع، وهي الهيئة الاستشاريه المؤثرة في البينتاغون. يمكننا نقل رسالة قصيرة، رسالة من كلمتين: "أنت التالي." "بعد الكارثة ربما ستنتهي بضعة من هذه الدول، تشمل: العراق، وسوريا، والعربية السعودية، كقطع مزعزعة ومفككة، في شكل دول من الحجم الصغير، تشبه الحطام المبعثر ليوغسلافيا." وبالرغم من البلاغة الويلسنية (نسبة إلى الرئيس الأمريكي ويلسن)، الصادرة عن الرئيس ومستشاريه، حول إحضار الديموقراطية إلى الشرق الأوسط؛ فإنه من الواضح أن قاع صيغتهم الديموقراطية، ربما يتم فرضه بالقوة العسكرية.

وليس هذا في الشرق الأوسط فقط. لقد تم اختيار ٣٠٠٠ جندي أمريكي للذهاب إلى الفلبين؛ لفتح جبهة جديدة في وجه

الحرب على الإرهاب، كما أن كوريا الشمالية هي أخيراً تحت أنظار الإدارة الأمـريكيـة. وربما تكون أمـريكا اللاتينيـة في الأفق؛ حـيث أَقرَّتْ إدارة بوش تغييراً فـاشلاً للنظام في فنزويلا السنة الماضية وحيث تحديات التوجه الجديد نحو اليسار تَنبِثقُ في البرازيل، والإكوادور، وأماكن أخرى. وكما أن قصف هيروشيما الذي صعق اليابان حتى الاستسلام في ١٩٤٥، وخدم جيدا بتقديم ملحوظة لبقية العالم بأن الولايات المتحدة تملك قوة لا يمكن مجاراتها، وهي لن تتردد في استخدامها؛ فإن الحرب على العراق تتضمن هدفاً مماثلاً. يقول آيان لوستيك أستاذ العلوم السياسية في جامعة بنسيلفانيا: "إن ذلك يشبه المتسيد على الملعب، فأنت توسع أحدهم ضرباً، وعندها يتأدب كل شخص آخر."

مراراً وتكراراً في أحاديث، ومقالات، وأوراق شاحبة، يستمر المحافظون الجدد في جعل الأمر واضحاً؛ بأن الحرب على العراق مقصودة لإظهار تصميم واشنطن، على تنفيذ استراتيجية بوش الجديدة للأمن القومي، المُعلَن عنها في الخريف المنصرم، حتى ولو كان عملُ ذلك يعني هدمَ بنية المعاهدات والتحالفات، لحقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية بكاملها، بما في ذلك حلف الناتو، وهيئة

الأمم المتحدة. لقد كتب ويليم كريستول من مجلة ويكلي ستاندارد، ولورانس إف كابلان من مجلة نيو ريبابلك في كتابهما: (الحرب على العراق): "إن المهمة تبدأ في بغداد، ولكنها لن تنتهي هناك... إننا نقف على حافة منحنى لحقبة تاريخية جديدة... إنها لحظة حاسمة... ومن الواضح أنها تشمل ما هو أوسع من العراق. إنها حتى أوسع من مستقبل الشرق الأوسط، والحرب على الإرهاب. إنها تحدد نوع الدور الذي تنوي الولايات المتحدة أن تؤديه في القرن الحادي والعشرين."

إن غزو العراق، واحتلال عاصمته، وحقول نفطه، والاستيلاء على الأماكن المقدسة الشيعية يُمكن فقط أن يتضمن تأثيراً مدمراً، وفقداناً هائلاً للاستقرار في المنطقة بأسرها: من مصر، وحتى آسيا الوسطى والباكستان. "إننا جميعاً مستهدفون" هكذا أخبرَ الرئيسُ السوري بشار الأسد لقاءَ القمة العربية، الذي تمت الدعوة له، من أجل مناقشة مسألة العراق في الأول من مارس، وأضاف: "إننا جميعاً في خطر".

"إنهم يريدون أن يُشعلوا ثورةً في إيران، ويستخدموا ذلك في عزل سوريا، وربما مهاجمتها في وادي البقاع (اللبناني)، وإجبار

سوريا على الخروج منه." هكذا يقول مساعد وزير الخارجية الأمريكي السابق لشؤون الشرق الأدنى إدوارد إس ووكر، الذي هو الآن رئيس معهد الشرق الأوسط، ويضيف: "إنهم يريدون أن يضغطوا على معمر القذافي في ليبيا، ويريدون أن يُزعزعوا الاستقرار في العربية السعودية؛ لأنهم يؤمنون بأن عدم الاستقرار هناك أفضل من استمرار الوضع الحالي. وأن الناتج عن هذا - كما يعتقدون- سيكون الباكس أميركانا، أو حقبة السلام الأمريكي (أي: حقبة من الاستقرار الطويل تحت هيمنة الإمبراطوية الأمريكية، تشبه حقبة الباكس رومانا، أو السلام الروماني، الذي تَحقَّقَ تحت حكم الإمبراطوية الرومانية، خصوصاً في القرن الثاني للميلاد. المترجم).

إن الأثر المباشر للحرب ضد العراق سيقع في إيران، حسب ما يقول العديد من المحللين، بما في ذلك المحافظون الجدد، وأيضاً خبراء في الشرق الأوسط أقل تحيزاً. وكمحطة تالية على امتداد "محور الشر"؛ فإن إيران تملك القوة المحسوسة في طول المنطقة وعرضها. وإيران بثروتها النفطية الغنية، وشَغْلِها امتداداً واسعاً من النطاق الجيوسياسي الحقيقي، هي -وبصورة قابلة للجدل- البلدُ الأكثر أهميةً على المستوى الاستراتيجي بين جيرانها.

فهي بسكانها من الكرد تملك حصة في تحديد مستقبل كردستان، وبنفوذها الشيعي تملك تأثيرا بالغاً بين الأكثرية الشيعية في العراق، ولبنان، والبحرين، وبين الكثافة الشيعية الكبيرة في المنطقة الشرقية الغنية بالنفط في السعودية، وبين أمراء الحرب في غرب أفغانستان. كما أن روابط إيران مع ميليشيات حزب الله العنيفة، والتي تَحملُ حماساً معادياً للأمريكان، يُمكن له أن يَشتعل باحتلال العراق؛ مما سوف يُعطي لإدارة بوش كلَّ الأسباب التي تحتاجها، لَمدِّ نطاق الحرب على الإرهاب إلى طهران.

ستكون الخطوة الأولى للولايات المتحدة -كما يقول المحافظون الجدد- أن تدعم الجماعاتِ المعارضةَ، مِن المنفيين الإيرانيين، الراغبين بالتجند في الحرب على الإرهاب، تماماً كما خَدَم المؤتمرُ الوطني العراقي بصفته رأسَ الحربة، للتدخل الأمريكي في العراق. وكذلك مثلما خَدَم الملِكُ الأفغاني السابقُ الخَرِفُ، بصفته نقطة احتشاد للاستيلاء الأمريكي على تلك الدولة الآسيوية الحبيسة؛ فإن بقايا العائلة الملكية المتبقية من مخلفات شاه إيران السابق قد تستطيع أن تكون نقطة احتشاد كذلك لحدث آخر. "إن الحنين إلى الوطن عند ابن الشاه الأخير رضا بهلوي... قد عاد إلى الصعود

مرة أخرى" هكذا يقول ريول مارك جيريتش موظف السي آي إيه السابق، والذي هو كذلك مثل ليدين وبيرل مُتَخفٍّ في معهد المشروع الأمريكي (AEI). يقول جيريتش:"يجب علينا أن نكون جاهزين - مهما يكن الأمر- لنقل المعركة بصورةٍ أكثرَ مباشرةً إلى الملالي." مضيفاً بأن على الولايات المتحدة أن تُفكِّر مَلِيّاً في ضرب فيالق حرس الثورة الإيراني، وحلفائها في لبنان، في وقتٍ واحد. "في الحقيقة نحن نملك خيارين فقط لهما مغزى: التصدي لرجال الدين الإيرانيين، ووكلائهم عسكرياً، أو تطويقهم بالحظر النفطي."

ليست إيران البلدَ الوحيدَ، حيثُ تُؤْخَذ ترميماتُ الملكية بعين الاعتبار. إن المحافظين الجدد قد أخذوا يدعمون أيضاً استراتيجية عودة الحكم الملكي للعراق، بعد أن تمَّ إسقاطُه عام ١٩٥٨، على يد مزيج من القادة العسكريين، والشيوعيين العراقيين. وعندما تَداعتْ الحكومةُ العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى؛ رَعَتِ المخابراتُ البريطانية ظهورَ عائلةٍ معروفةٍ بشكل محدود، تُدعى بالهاشميين، الذين تعودُ أصولُهم إلى مناطق في السعودية حول مكة والمدينة، وقد تقلّد أَخَوانِ هاشميان عرشَيْ: العراق، والأردن.

منذ حوالى سنة، والمحافظون الجدد يقترحون إمكانَ قيام أمير الأردن الحسن – أخو الملك الراحل حسين ملك الأردن، والقريب في الدم من العائلة الهاشمية العراقية – بإعادة تأسيس الهاشميين في بغداد، بعد إقصاء صدام حسين. من بين المحافظين الجدد، مايكل روبين، وهو عضو سابق في مؤسسة الأعمال الأمريكية، وديفيد وارمسر، وهو معاونٌ لبيرل. كتب روبين في عام ٢٠٠٢ مقالة لـ الديلي تلغراف، بعنوان: "إذا أراد العراق مَلِكاً، فقد يكون حَسَنُ الأردن الرجلَ المناسب". كما كتب وارمسر في عام ١٩٩٩ كتاباً بعنوان: "حليف الطغيان"، وهو كتاب نَشَرتْهُ مؤسسةُ الأعمال الأمريكية، وتمَّ تكريسُه بشكلٍ كبير لفكرة حكم الهاشميين العراقَ. إن روبين اليوم مسؤولٌ مهمٌّ في وزارة الدفاع، يتولى الإشراف على سياسة الولايات المتحدة نحو العراق. كما أن وارمسر موظف ذو منزلة رفيعة، يعمل لوكيل وزارة الخارجية لشؤون التحكم بالأسلحة والأمن القومي: جون بيلتون، الذي هو بذاته مؤيدٌ لأيديولوجيا المحافظين الجدد. (...) ومنذ ١١ أيلول، والصقورُ يُطلقون هجوماً كلامياً شاملاً على النظام الملكي السعودي، مُتّهمين الرياضَ بدعم منظمة القاعدة وأسامة بن لادن، ومتهمين السعوديين بإدارتهم

شبكةً عالميةَ النطاق من المساجد والمدارس والمؤسسات الخيرية، التي تُروِّج للإرهاب. إنها تهمةٌ تَحبِس الأنفاس، حتى إن الأشخاص الأكثر معرفة بالسعودية؛ يعجزون عن الرد عند سؤالهم عنها. يقول جيمس آكنز -الذي خدم سفيراً للولايات المتحدة في السعودية أواسطَ السبعينات من القرن الماضي، والذي يسافر إليها كمستشار بشكل متكرر-: "إن الفكرة التي تقول بأن عائلة آل سعود تتعاون مع القاعدة هي فكرة سخيفة"، ويضيف: "إنه لغباء مفرط أن تكون مداراً للنقاش".

لكن ذلك على أية حال لا يمنع المحافظين الجدد من مناقشتها. ففي "الحرب ضد أمراء الإرهاب" يستشهد لادين بـ وارمسر في الاتهام بأنه -وقُبيل الحادي عشر من سبتمبر-: "صار من الصعب التفريق بين المخابرات السعودية والقاعدة." وهذا ضمنَ عددٍ لا يحصى من الاتهامات الأخرى المشابهة، التي تُرمى بها السعودية على يد المحافظين الجدد. وقد ظل ماكس سنجر - المؤسسُ المشاركُ لمؤسسة هدسون- ينصح باستمرار؛ بأن تسعى الولايات المتحدة إلى تفكيك المملكة السعودية، عن طريق تشجيع جمهورياتٍ منفصلة: في الإقليم الشرقي الغني بالنفط (ذي الأغلبية

الشيعية)، وفي غرب الحجاز أيضاً. يقول سنجر: "بعد إسقاط (صدام حسين) ستكون هناك هزة في أرجاء المنطقة". ويقول ليدين: "إن كان هذا يعني سقوط النظام (السعودي)؛ فليكن." وعندما يرحل صدام حسين، فإن ذلك ربما يقود إلى انهيار النظام السعودي تحت المتطرفين المؤيدين للقاعدة. " وإذا كان الأمر كذلك، فربما يتوجب علينا أن نَمدَّ الحرب إلى شبه الجزيرة العربية، وفي أقل الأحوال؛ علينا أن نمدها إلى المناطق المنتجه للنفط".

يقول آكنز: "لقد توقفتُ عن القول بأن العربية السعودية سيتم الاستيلاء عليها من قبل أسامة بن لادن -أو نسخة مطابقة له- إذا نحن دخلنا العراق." ثم يضيف: "أنا الآن مقتنعٌ بأن هذا بالضبط ما يريده (المحافظون الجدد). وبعدها سنستولي عليها فعلاً."

إن العراق أيضاً يمكن أن يتجزأ على الأقل إلى ثلاثة أجزاء، يُمكن أن تَستنِد على مناطق الإمبراطوية العثمانية الثلاث السابقة: الموصل، وبغداد، والبصرة، التي جُمِّعت معا لتكوين الدولة منذ ثمانية عقودٍ مَضَتْ. إن من المحتمل أن يؤدي هذا إلى مملكة هاشمية تتحكم في وسط العراق ذي الأغلبية السنية، ودولة شيعية في الجنوب (ربما مرتبطة بإيران بشكل غير رسمي)، ونوع ما مِن

الكيان الكردي في الشمال، إما أن يكون مستقلاً، أو بصورة أكثر احتمالاً تحت سيطرة الجيش التركي.

إن تركيا -اللاعب المتردد في حملة بوش الصليبية- تخشى من كردستان المستقلة، وربما ترغب في وضع يدها على حقول النفط في شمال العراق، التي تحيط بمدينة كركوك.

ربما يكون العنصر الأهم عند اللورنسيين (الذين يمثلون الآن دوراً مشابهاً لدور لورنس العرب)، الراغبين في إعادة رسم الخرائط، هو قلب نظام الأسد، وتمزيق سوريا، وذلك بالضبط ما اقترحه بيرل بنفسه، وذلك في وثيقة ١٩٩٦م، التي حضّرها لبيت الخبرة الإسرائيلي: معهد الدراسات السياسية والاستراتجية المتقدمة (IASPS)، وكانت الخطةُ المُعَنْوَنَةُ بـ: "تَحطُّمٌ نظيفٌ: استراتيجيةٌ جديدةٌ لصيانة المجال الحيوي" مُعَدَّةً أصلاً كورقة عمل، لنصح رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك بنيامين نتنياهو. وقد طالبتْ إسرائيل، بالعمل مع تركيا والأردن على "الاحتواء، والزعزعة، والكَبح" لدولٍ مختلفة في المنطقة: إسقاط صدام حسين في العراق، الضغط على الأردن لإرجاع حكم السلالة الهاشمية على عرش العراق، وفوق هذا كله شن الضربات العسكرية ضد لبنان وسوريا

كـ"مقدمة لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، وتهديد وحدة الإقليم السوري." وكان قد انضم إلى بيرل في كتابة هذه الوثيقة دوجلاس فيث، وورمسر، اللذان هما الآن الموظفان الأكبر سناً في جهاز الأمن القومي في إدارة بوش.

إن جري سكميت -المدير التنفيذي لمشروع القرن الأمريكي الجديد (PNAC) - قلقٌ فقط لأن إدارة بوش بما فيها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ونائب الرئيس ديك تشيني، ربما لن يكون عندها مشروع للقرن الأمريكي الجديد (PNAC)، وأضاف سكميت: "هذا فعلا كتابنا".

ومنذ ست سنين، في البيان التأسيسي للمبادئ دعا مشروع القرن الامريكي الجديد (PNAC) إلى تغيير جذري في السياسة الدفاعية والخارجية للولايات المتحدة، وتعزيز الميزانية العسكرية، مع عضلات أقوى تتحدى الأنظمة المعادية، وتفرِض "زعامة أمريكية عالمية". وقد شمل التوقيع على الوثيقة: تشيني، ورامسفيلد، ونائب زير الدفاع: بول ولفويتز، ومساعد وزير الدفاع لشئون الأمن العالمي: بيتر دبليو رودمن، وإليوت أبرامز مدير شئون الشرق الأدنى وشمال أفريقيا في مجلس الأمن القومي، وزلماي خليل زاد ضابط

ارتباط البيت الأبيض بالمعارضة العراقية، وآي لويس ليبي رئيس الموظفين لدى تشيني، وجِف جب بوش أخو الرئيس دبليو بوش. إن بيانَ (PNAC) يُؤْذِنُ بإيجاز عن استراتيجية الأمن القومي في ٢٠٠٢م.

إن سيناريوهات التغييرات الكاسحة في الشرق الأوسط المفروضة بالقوى المسلحة الأمريكية كانت ذات يوم مجرد أوهام فكرية -وحتى سخيفة-، ولكنها الآن مأخوذة على محمل الجد، وتُعطي تأثيراً لا يحصى من خلال غزو العراق. يُحذِّرُ تشاس فريمان -الذي خدم سفيراً للولايات المتحدة في العربية السعودية خلال حرب الخليج- من أن كل شيء قد يذهب في الاتجاه الخاطئ: "إنها حرب لإدارة مجموعة معقدة من الأحداث والظروف، بواسطة أناس ممن لا يعرفون شيئاً عن الشرق الأوسط." ويضيف فريمان: "وليس هناك من طريق لمعرفة كيف ستتساقط الأجزاء." ويشير إلى أن بيرل ومعاونيه يَنشُدون شرقاً أوسطاً مُسيطَراً عليه بتحالف الولايات المتحدة وإسرائيل، ومدعوماً بقوة عسكرية غامرة. ومجيباً على سؤال حول المقارنة بين العراق وهيروشيما يُضيف فريمان: "ليس هناك شك بأن ريتشارد بيرل في نظرته إلى العالم؛

يرى الصدمة والرعب وسيلتين لتأسيس وضعية التفوق، التي يخاف الآخرون تحديها."

ولكن فريمان -الذي هو الآن رئيس مجلس سياسة الشرق الأوسط- يعتقد بأنها ستكون كارثة: "إن هذا يتفوق على أي شيء في مسيرة كتالوج الحماقة"، "إنها كاللاموسات المسرعة (التي تنقاد بصورة جماعية دون تَبصُّر) نحو حافة المنحدر الشاهق".

■ الإمبراطورية تنسل عائدة

"طالما لم يجرؤ الأمريكان على ذكر اسمهم -طالما واصلوا هذا التقليد من الكذب المنظم- فإن شباب وشابات اليوم الطموحين سوف يُلقون نظرةً واحدةً على مشاهد عراق ما بعد الحرب، ويقولون بصوت واحد: "لا تذهبوا أبدا إلى هناك". إن الأمريكان يحتاجون أن يذهبوا إلى هناك. إذا أصر الأفضل والأذكى على ملازمة الوطن؛ فإن مشروع اليوم الاستعماري غير المتحدث عنه، ربما يَشهد نهايتَه غداً، وبصورة يعجز عنها الوصف."

نيل فيرجسون

الإمبراطوية تنسل عائدة[١]

نيل فيرجسن[٢]

حيثما تَقْهَرُ روما .. تَستوطِن

لقد سقط العراق. وتلك تماثيل صدام حسين منحدرةً تستقبل التراب بوجوهها، وقد بلغ طغيانُه الشيطاني نهايتَه.

وإذن، هل نستطيع -كالمعتاد- أن نعود إلى بلدنا الآن؟

لم يكن عليكَ أن تنتظر طويلاً؛ لتشاهد رمزاً نموذجياً للضعف الهيكلي، في صميم النزعة الامبراطورية(آسف، أعني النزعة الإنسانية!) الأمريكية الجديدة .

إنني أتحدث عن إطار سجلها الزمني القصير؛ فمع أني لم أكن أَحسِبُ الوقت، غير أن النجوم والأشرطة، لابد أنها ظلت هناك في الأعلى على رأس تمثال صدام حسين، لأقلَّ من دقيقة! إن لك أن تتساءل: ما هو الأمر الذي أعطاه الضابط لنائب العريف من

(١) مجلة نيويورك تايمز، ٢٧ نيسان/إبريل ٢٠٠٣م.

(٢) أستاذ التاريخ الاقتصادي والسياسي في جامعة نيويورك، وأستاذ سابق للتاريخ السياسي والاقتصادي وباحث متقدم في جامعة إكسفورد.

المارينز (إدوارد تشين)، عندما رأى عَلَمَ الولايات المتحدة عالياً هناك: "بُنَيّ، أَنزِلْ هذا الشيء، واطوِهِ في الأسفل، أو سوف تستمرّ كلُّ محطةِ تلفزيون، من هنا حتى بنجلاديش، في انتقادنا، بصفتنا المستعمرَ الأمريكي!"

إن صدى الدافع الإمبريالي عند تشين نائب العريف، يمكن سماعُه في الرسالة الأخيرة، التي أرسلها (كيمافوم تشاناوينسيس) إلى بلده، قبلَ أن يدخل هو ووحدتُه من المارينز العراق. فقد أطلق تشاناوينسيس نكتةً تقول: إن مخيمَه في الكويت كان شبيهاً بأي شيء مهروس (M.H.S.)، باستثناء أنه ربما يحتاج لأن يُدعَى: (M.A.H.T.S.F). والأحرف: اختصارٌ لجملة: "جنود البحرية باقون هنا وللأبد."

ولكن السؤال الذي يثور من خلال نكتة نائب العريف تشاناوينسيس، المؤلمة، والأخيرة - قُتل تشاناوينسيس بعد أسبوع، عندما انفجرت مركبتُه البرمائية المهاجمة في الناصرية- هو: هل وجودُ الأمريكان في العراق سيكون من أجل البقاء وإلى الأبد؟

ما من شك بأن الصحيح -كما قال الرئيس بوش- أن أمريكا "سوف تحترم وإلى الأبد" نائب العريف كوربورال، وأكثر من ١٢٠ من

أفراد الخدمة العسكرية الآخرين، الذي قتلوا بعيدا جدا عن وطنهم في هذا الصراع.

يُحترمون إلى الأبد؟ نعم. ولكن ماذا عن الاستقرار هناك وإلى الأبد؟

من بين أشياء كثيرة، يبدو أن اللغز الأكبر فيما يتصل بالاحتلال الأمريكي للعراق هو في مدته المحتملة. إن التصريحات الأخيرة لأعضاء من إدارة بوش تُوصي بإطارٍ زمني، هو أقرب بكثير إلى سرعة الزوال، منه إلى البقاء الدائم. كما أَخبرَ الرئيسُ بنفسه الشعبَ العراقي، في حديث تلفزيوني بعد سقوط بغداد بقليل، قائلاً: إن "حكومة العراق، ومستقبل بلدكم؛ سوف يكون في القريب العاجل أمراً خاصاً بكم ... إننا سنحترم تقاليدكم الدينية العظيمة، وما تحمله من مبادئ المساواة والرحمة، التي هي ضرورية لعراق المستقبل. إننا سنساعدكم في بناء حكومة مسالمة، وذات تمثيل برلماني، تحمي حقوقَ المواطنين جميعاً، وعند ذلك فإن قواتنا العسكرية ستغادر."

إن الشيء الذي لم يجعل منه الرئيس أمراً واضحاً بصورة كلية؛ هو ما إذا كانت مغادرة فرق الجيش ستكون مصحوبةً بجي

جارنر المتقاعد، ومكتبه لـ"إعادة البناء والمساعدة الإنسانية" ذاك التعبير الغامض، لما كنا سميناه ذات مرة - (OMGUS)مكتب الحكم العسكري (الولايات المتحدة)-. لم يكن الرئيس دقيقاً تماماً، حول التوقيت المتوقع، لرؤية تسليم النفوذ، إلى "الحكومة الممثَّلة برلمانياً، والمسالمة" من العراقيين أنفسهم.

ولكننا نعرف نوع الإطار الزمني، الذي يحمله عقل الرئيس. ففي حديث ممهِّدٍ للحرب مُوجَّهٍ إلى مؤسسةِ المشروع الأمريكي للقرن الجديد، صرح بوش قائلاً: "إننا سوف نبقى في العراق على قدر ما تستدعيه الحاجة، وليس أكثر من ذلك بيوم." لقد كان لافتاً للنظر بأن وحدة القياس التي استخدمها كانت الأيام. ولكن بول ولفويتز نائب وزير الدفاع، في حديث له قبل أسبوع على الأقل من سقوط بغداد، اقترح أن يسيِّر جارنر الشأنَ العراقي، ربما لستة أشهر على الأقل. متحدثون آخرون من الإدارة يذكرون السنتين، بصفتهما مدةَ التحول في حدها الأقصى. وعندما سئل جارنر نفسه: كم الفترة التي يتوقعها لبقائه في موقع المسئول؛ تحدث عن ثلاثة أشهر فقط.

إذا كانت أمريكا - كما يجادل عدد أكثر فأكثر من المعلقين - بَدأتْ تُباشِر عصراً جديداً من الامبراطورية؛ فإن الناتج قد يكون: أسرعَ الامبراطوريات تلاشياً، في التاريخ البشري كله! إن الآخرين من بُناة الامبراطوريات استغرقوا في أوهامهم حول إمكان سيطرتهم على الأقوام الخاضعين لهم ألفَ سنة. والوضع الحالي يتطور الآن؛ ليشكل امبراطورية الألف يوم، الأولى في تاريخ بقاء الامبراطوريات. فلتجعلوها إذن ألفَ ساعة.

دعوني أكن واضحاً. إنني عضو كاملُ الانتماء، في عصابة الاستعماريين الجدد. ومنذ اثنتي عشرة سنة خَلتْ -عندما لم يكن من اللياقة مطلقاً أن تقول هذا- كنتُ للتو أُجادِل بأنه قد يكون "مِن المستحب للولايات المتحدة أن تَخلع" طغاةً من أمثال صدام حسين. وكتبتُ: "إن الرأسمالية والديموقراطية لا تَحْدُثان بشكلٍ طبيعي، وإنما تتطلبان تشكيلاتٍ مؤسسيةً فاعلةً، مبنيةً على القانون والنظام. إن الحكم الملائم لأمريكا استعمارية؛ هو إقامةُ هذه المؤسسات، في الأماكن التي لا توجد بها ... وإن يكن بالقوة العسكرية عند الضرورة." اليوم هذه المناقشة تحت خطر أن تصبح مبتذلة، على الأقل بين المجموعة التي تقرأ المصلحة الوطينة، وهو

الإصدار الأخير الذي يمثل تقريبا طبعة خاصة استعمارية أمريكية. في مكان آخر، بَدأ كتاب متنوعون -مثل: ماكس بوت، وأندرو باسيفيتش، وتوماس دونلي، وكيس المؤيد للنتيجة مسبقاً- يُديرون مقارنات بينَ حقبة السلام البريطانية في عهد الملكة فيكتوريا، وحقبةِ السلام الأمريكية التي يَتخيلونها في عهد الرئيس جورج بوش الثاني. ويذهب بوت بعيداً جداً عندما يقول: إن الولايات المتحدة يجب أن تُزوِّد أماكنَ مثل أفغانستان وبلدانٍ أخرى مقلقة، بـ: "نوع الإدارة الأجنبية المستنيرة، التي قدَّمها ذاتَ مرة الإنجليزُ الواثقون من أنفسهم، في بناطيل الخيالة وخوذاتهم."

أوافق بأن الإمبراطوية البريطانية نالت ضغطاً شرساً بارعا من جيل المؤرخين "ما بعد الاستعماريين"، الذين أُهينوا -وفي مفارقة تاريخية- بنزعتها العنصرية. ولكن الحقيقة هي أن البريطانيين كانوا وبصورة دالة أكثرَ نجاحاً في تأسيس اقتصاديات السوق، وحكم القانون، والانتقال إلى حكومة تمثيلية، أكثر مما أنجزته أو وصلتْ إليه غالبيةُ حكوماتٍ ما بعد الاستعمار. إن سياسة "المزج" المفضلة عند استعماريي الحقبة الفكتورية تُقرأ كنصٍّ تَمَّ طبعُه للتو على يد صندوق النقد الدولي، إن لم يكن البنك

الدولي: تجارة حرة، وميزانيات متوازنة، ومال ثابت، وقانون عام، وإدارة خالية من الفساد، واستثمار في البنية التحتية، مُمَوَّل بقروضٍ دولية. هذه هي بالضبط الأشياء التي يحتاجها العراق في هذا الوقت. وإذا كان الصراخ المخيف "امبراطورية أمريكية" يستطيع أن يولِّدها، فإنني حين ذاك معه كلياً. إن المصيدة -يستوي في ذلك أن تكون أمريكا تملك أو لا تملك سمة الشخصية الحاسمة ومن دون أن يكون المشروع الاستعماري الكلي مشؤوماً- هي: مدى القدرة على التحمل. وإنني كلما أنفقتُ وقتاً أكثرَ هنا في الولايات المتحدة؛ أصبحتُ أكثر شكاً فيما يتصل بهذا الشأن.

إن الولاياتِ المتحدة تَملِك من غير جدال القوةَ الاقتصاديةَ الأوليةَ لبناء الإمبراطوية -في الحقيقة بمستوى أكبر مِن كل ما كان متوفراً للمملكة المتحدة، وعلى سبيل المثال، في عام ١٩١٣م كانت حصةُ بريطانيا من الناتج العالمي الكلي ٨٪، بينما كان الرقم الموازي في عام ١٩٩٨م للولايات المتحدة: ٢٢٪-. وهناك أيضاً القوةُ الناعمة (soft power) - الثقافةُ الاستهلاكية المتجددة بلا نهاية، التي يُجادِل جوزيف ناي عن كونها عنصراً جوهرياً في النفوذ الأمريكي-، ولكنَّ جوهرَ النفوذ الأمريكي - كما شاهدنا في

أفغانستان، والآن في العراق- بعيدٌ تماماً عن نمط القوة الناعمة. إن أمريكا تستطيع أن تكون في غاية القسوة. والمشكلة أن القوة الناعمة سريعةُ الزوال. وليست المسألة تناقصاً بالغاً في الطاقة، بقدر ماهي: مشكلة كونها قوة الومضة أو قوة اللحظة القصيرة- فهي هنا اليوم، مع فرقعة مدهشة، ولكنها تتلاشى في الغد.

علاوة على الإطار الزمني للرئاسة الأمريكية -المحدودة بدورة انتخابية كل أربع سنوات- فإن العرض الأكثر وضوحاً لقصر النفس يتمثل في الصعوبة التي تجدها الإمبراطوية الأمريكية، في التمديد للنوع المناسب من الناس لإدارتها. إن مؤسسات أمريكا التعليمية تتفوق في تقديمها للشبان والشابات المؤهلين بصورة ممتازة، مِن الناحيتين الأكاديمية والمهنية. إنما تكمن المشكلة فحسب في أن النخب الشابة لا يحملون رغبة على أية حال، في تمضية حياتهم وهم يديرون فراغاً رملياً حارقاً ومأزوماً مثل العراق. إن أمريكا تحمل طموحاً أكثر رواجاً وأشد بريقاً، ليس لحكم الموصل، وإنما لإدارة شبكة تلفيزيونية غنائية عبر الكيبل (MTV) . ليس لحكم الحجاز، وإنما لتسيير صناديق الاستثمار المجازف. وليس لأن يكون الفرد آمراً عسكرياً في الإمبراطوية البريطانية (.C.B.E) وإنما

ليكون مديراً تنفيذياً (C.E.O.) وهذا هو بالطبع سبب واحد من أسباب عديدة لكون الأمريكيين الموجدين حالياً في العراق هم من مواليد المهاجرين إلى الولايات المتحدة -رجال من أمثال كيمفوم تشانشونق-.

لقد مَرَّ التحالفُ الأمريكي البريطاني هنا من قبل، عندما هزموا الحكام العثمانيين السابقين في الحرب العالمية الأولى، وأدارتْ بريطانيا العراق،، تحت صفة "الانتداب"، بين عامي: ١٩٢٠ و١٩٣٢م. ومن أجل الحفاظ على الشكل المناسب نَصَّبَتْ بريطانيا واحداً من عملائهما العرب -الأمير فيصل من العائلة الهاشمية- ملكاً. ولكن لم يكن هنالك شك في تحديد من هو الذي يدير البلد. وحتى بريطانيا لم يَدُرْ ببالها أيُّ شك حول سبب وجودها هناك. وعندما دخل العراق اثنان من خبراء النفط المحترفين، في مهمة استكشاف، سلَّمهما المفوضُ المدني البريطاني إلى مدير شرطة بغداد، وفي ١٩٢٧م عندما أصبح البترول يَصبُّ في بابا كركر (حقل نفط قريب من كركوك) في الجزء الشمالي من العراق دفع المسئول البريطاني حصة كبيرة. ومع أن البريطانيين تخلوا رسمياً عن السلطة للسلالة الملكية الحاكمة في عام ١٩٣٢م، إلا أنهم استمروا

مسيطرين بصورة غير رسمية على امتداد الثلاثينات الميلادية. ولكن قبضتهم على العراق انفكت فعلياً، مع اغتيال عملائهم: فيصل الثاني، ورئيس وزرائه نوري السعيد، في ثورة عام ١٩٨٥م.

إن النقطة الحاسمة هي هذه: عندما دخل البريطانيون العراق؛ علقوا هناك. وحتى نكون دقيقين، فقد كان هناك في العراق مندوبون للحكومة البريطانية، من عسكريين ومدنيين، أقاموا وبصفة مستمرة ما يقارب الأربعين عاماً.

وهذا بالتأكيد يجلِبُ سؤالاً يسيراً: مَنْ مِنَ الأمريكيين في حاضر الولايات المتحدة اليوم مَن يرغب في الإقامة في بغداد فترةً طويلةً مماثلةً للفترة التي قضاها البريطانيون؟ -يمكن أن تكون من الآن حتى ٢٠٤٣م.

"لا تذهبوا إلى هناك!" هي واحدة من العبارات المتداولة، التي يُمكِن أن تسمعها في نيويورك كل يوم. إنها - وبطريقةٍ ما- تُلَخِّص ما الذي تَصدَّعَ بالضبط، مِن حول المشروعِ الامبراطوري الكلي الفخم، لما بعد الحادي عشر من أيلول. وبالرغم مما لدى الأمريكان من صناعةِ تسلحٍ بالغةِ التدمير، وهائلة الغنى؛ فإنهم لا يَحملِون رغبةً في الفعالية الحاسمة، التي من دونها لا يُمكن أن

تتأسس أيٌّ امبراطوريةٍ حقيقيةٍ قابلةٍ للبقاء: إنهم بالفعل "لن يذهبوا إلى هناك".

إن البريطانيين على العكس من هذا النموذج. فقد كانت جيرترود بيل أولَ امرأةٍ تتخرج في إكسفورد وتحمل شهادة البكالوريوس بتفوق. وقد تَعلّمَت الحديثَ بالعربية، أثناء رحلة تنقيبٍ أثرية إلى القدس، في عام ١٨٩٩م، ومثلَ لورانس أصبحتْ مستخدَمةً في استخبارات الجيش البريطاني. وفي عام ١٩٢٠م تَمَّ توظيفُها سكرتيرةً شرقيةً للجنة العليا البريطانية في بغداد. وتُوفِّيتْ هناك في عام ١٩٢٦م، وكانت نادراً ما تزور بريطانيا خلال كل هذه المدة. وقد كَتبَتْ: "إنني لا أحرص على أن أكون في لندن كثيراً" "أنا أحب بغداد، وأحب العراق. إنه الشرق الأوسط الحقيقي، وهو مثير، الأشياءُ تتجدد هنا، ورومانسيةُ كلِّ شيء في المكان تُؤثِّر فيَّ، وتَمتصُّني."

إن الإمبراطوية البريطانية كانت مُرقَّطةً بآلاف "المستشرقين" من أمثال جيرترود بيل، التي هي -وبصورةٍ متزامنة- مفتونةٌ بالـ "الآخر" الغريب، ومسيطرةٌ عليه مع ذلك. إن بيانها في تتويج فيصل الأول في عام ١٩٢١؛ يوضِّح بإتقان طريقتهم في إدارة العمل: "عند

ذلك انتصب السيد حسين، وقرأ إعلان السير بيرسي الذي أعلن فيه بأن فيصل تم انتخابه ملكاً بنسبة ٩٦٪ من أصوات الناس في الموصل. حياة طويلة أيها الملك! مع هذا نحن نقف، ونؤدي له التحية، العلم الوطني ينكسر على سارية العلم بجوراه، وتَعزِف الفرقة: "يحفظ الله الملك" "ليس هناك نشيد وطني حتى الآن".

أخذت بريطانيا بعين الاعتبار الاحتلالَ على المدى الطويل، كجزء متأصل من إشارتهم إلى ذواتهم بصفتهم "بعثة تبشير حضاري" إن ذلك لا يعني البقاء للأبد. كان الافتراض أن الحكم البريطاني سينتهي بمجرد أن تصل البلد المحتل درجةً كافيةً من "التحضر" -اقرأها: التنكلز أو: التحول إلى إنجليز- للتأكد من الحكم المستمر للقانون، وتنفيذ الأسواق الحرة (لا ذكر هنا للعب الكريكت). ولكن هذا بوضوح يعني عقوداً من الزمن، وليس أياماً، وحينما تدخّلتْ بريطانيا في بلدٍ كالعراق؛ فإنها ما كانت تملك استراتيجية للخروج. لقد كان الموضوع الوحيد هو ما إذا كانت ستحكم بصورة مباشرة - بتنصيب حكومة بريطانية مباشرة - أو أنها ستحكم بصورة غير مباشرة، مع وجود وزير بريطاني يقدم "النصح" لحكومة صورية محلية مثل الملك فيصل.

وبكلمات أخرى، فإن بريطانيا كانت تذهب هناك. فبين ١٩٠٠ و١٩١٤ غادر ٢,٦ مليون بريطاني المملكة المتحدة لأهداف استعمارية (بحلول ١٩٥٧ وصل العدد الكلي إلى ستة ملايين شخص تقريبا). وإن كان كثير منهم -ولنعترف بذلك- فضلوا الهجرة إلى المناطق المعتدلة في انتقاء لعدد محدود من المستعمرات -كندا، واستراليا، ونيوزيلندا، وجنوب أفريقيا- أصبحت سريعاً ذات "سيادة" مستقلة. وبالرغم من ذلك فإن أعدادا مهمة منهم قد ذهبوا إلى أجواء أقل كرماً بكثير في آسيا وأفريقيا. وبنهاية الثلاثينيات على سبيل المثال كان فريق الموظفين في خدمة المستعمرات الرسمية في أفريقيا يزيد عن ٧٥٠٠ مغترب بريطاني. وقد كانت المجتمعات المغتربة الكبيرة، التي بنوها حاسمة في عمل الاستعمار البريطاني.

لقد جهزت ما لا يمكن الاستغناء عنه "شخصيات الأوضاع الحرجة" الذين تعلموا اللغات المحلية، وربما تبنوا بعض التقاليد المحلية أيضاً -إنما ليس إلى الدرجة الخطرة عادة التي تجعل منهم "محليين"- وقاموا بمهمة الوسيط بين السلطة الإمبراطوية البعيدة، ونخب البلد الذين تعتمد الإمبراطوية على ما يحملونه من رغبة واستعداد للتعاون معها.

إن حياة الاغتراب لم تكن كلها تمتعاً بخمرة الجن المحلية، ووجبات التيفين الخفيفة الشهية، كما رآها رود كيبلين. لقد كانت السيطرة على الهند كدحاً شاقاً: "سنةً بعد سنةً كانت بريطانيا تُصدِّر أشخاصاً جدداً للخدمة العسكرية في مقدمة الصفوف المقاتلة، ويحملون التسمية الرسمية: الخدمة المدنية الهندية. كان هؤلاء يموتون، أو يَقتلون أنفسهم بتحملهم لمزيد من أعباء العمل، التي لا تحتملها أجسادهم، أو يعيشون قلقين حتى الوفاة، أو حتى انقطاع الصحة والأمل معاً." ومع ذلك، فقد كانت هذه هي الخدمة المُتوقَّع - وبثقة تامة - اجتذابها لأفضل وألمع الخريجين من نخب الجامعات البريطانية. فمن بين ٢٩٧ عضواً من الأعضاء الجدد المنضمين للخدمة في المستعمرات بين عامي ١٩٢٧ و١٩٢٩ كان نصفهم تقريبا قد تخرج في إكسفور أو كيمبرج. وكان العدد المخصص للعمل فيما يسمى بالخدمة المدنية الهندية أعلى من ذلك بكثير.

لماذا كان هناك أعداد كبيرة جداً من خريجي جامعات القمة في بريطانيا راغبين في قضاء كامل حياتهم العملية في أماكن بعيدة جداً عن الأرض التي ولدوا فيها، يُسيِّرون بلداناً موبوءةً

بالأمراض المُعْدية، والأجواء الجهنمية الحارة؟ وكمثال نموذجي: لماذا ابتدأت إيفان ميتشونشي (خريجة إكسفورد التي اجتازت اختبار الخدمة المدنية الهندية الصعب) خدمتها في البنغال عام ١٨٨٧م ثم أنفقت الأربعين سنة التالية من عمرها في الهند؟ أحد مفاتيح الإجابة يكمن في الاسم السلتي لعائلتها. لقد كان الاسكتلنديون ممثَّلين وبصورة عميقة ليس فقط في المستعمرات التي استقر بها المستعمر الأبيض، وإنما أيضا في نخب الجيش والتجارة في مدن مثل كلاكتا وهونغ كونغ وكيب تاون. كما أن الإيرلنديين قاموا أيضاً بدورٍ استثنائي في فرض الحكم البريطاني، بتقديمهم حصة ضخمة من الجنود والرجال للخدمة في الجيش. وبالنسبة للشباب البريطانيين الذين ينمون في الهوامش الفقيرة والعقيمة والموحلة في أطراف المملكة المتحدة؛ فإن الإمبراطوية تمنحهم فرصتهم.

لقد نهض الحافز الامبراطوري من مجموعة معقدة ومتشابكة من الانفعالات أو العواطف منها: التفوق العنصري، نعم، ولكن أيضاً: الحماس الإنجيلي. وربما الربح والمنفعة المادية، ولكن أيضا الاعتقاد الصادق بأن نشر "التجارة، والمسيحية، والحضارة" لم يكن

يخدم المصالح البريطانيية فحسب، وإنما مصالح رعايا بريطانيا في المستعمرات أيضاً.

إن المقارنة مع المؤيدين "اللطفاء" للاستعمار في هذه الأيام في الولايات المتحدة -سمهم "بناة الدول" إذا كنت حريصاً على انتقاء التعبير الملطَّف للفكرة نفسها- يمكن أن يكون وبصورة مخيفة أكثر صرامة، وهنا تبرز خمس نقاط:

أولاً: ليس فقط أن الأغلبية العظمى من الأمريكان لا تحمل أي رغبة في مغادرة الولايات المتحدة، بل هناك الملايين من غير الأمريكان يتوقون أيضاً للانضمام إليهم. وبخلاف الوضع في المملكة المتحدة منذ قرن مضى، فإن الولايات المتحدة بلد مستورد للبشر، مع معدل صاف من المهاجرين يبلغ ٣,٥ لكل ألف شخص من السكان، وبعدد كلي من المواليد الأجانب يبلغ ٣٢,٥ مليون شخص (أي: أكثر من شخص واحد من بين كل عشرة من سكان الولايات المتحدة).

ثانياً : حين يفضل الأمريكان الإقامة في الخارج، فإنهم يميلون إلى لزوم العالم المتطور. وكما في عام ١٩٩٩م حيث كان العدد التقديري للأمريكان الذين يعيشون في الخارج هو ٣,٨ مليون

شخص. وهذا قد يبدو عدداً كبيراً، ولكن ما لا يقل عن عشرهم هم من المواليد الأجانب. ومن هؤلاء الأمريكان المغتربين كان ثلاثة أرباعهم تقريباً يعيشون في أحد البلدين العضويين في نافتا (أكثر من مليون في المكسيك، و٦٨٧,٧٠٠ في كندا) أو في أوروبا (أكثر من مليون). والثلثان من بين الـ٢٩٤,٠٠٠ الذين يعيشون في الشرق الأوسط؛ يعيشون في إسرائيل. ولم يكن في أفريقيا سوى ٣٧,٥٠٠ شخص فقط.

ثالثاً: في حين أن القوات الاستعمارية البريطانية كانت في الغالب مستقرة بقواعدها في الخارج، فإن معظم الجيش الأمريكي يتمركز تقريباً على تراب الوطن. وحتى القاذفات من بي تو التي قصفت صربيا داخل كوسوفو المعزولة في ١٩٩٩م كانت تقلع من نب نوستر في ولاية ميسوري. ومما يستحق تذكره أن ٤٠ في المائة من طواقم قوات ماوراء البحار الأمريكية تتمركز في أوروبا الغربية، منها ما لا يقل عن ٧١,٠٠٠ في ألمانيا. وحتى هنا ففي حين أن البريطانيين ابتهجوا ببناء ثكنات عسكرية في مناطق العدو وذلك وبشكل دقيق بهدف إخضاع الأعداء، بينما يستقر هذه الأيام ربع فرق الأمريكان العاملة في ماوراء البحار في ما يدعى البلد الأكثر مسالمة في العالم.

رابعاً: عندما يمارس الأمريكان حياتهم في الخارج، فإنهم عموماً لا يقيمون لفترة طويلة، ولا يندمجون كثيراً، ويفضلون أن يقطنوا في وحدات أمريكية صغيرة، على مسافة قريبة من القواعد العسكرية، وفي فنادق الخمس نجوم العالمية (اقرأها: الأمريكية). وعندما زرت قاعدة لاكنيث الجوية في السنة الأخيرة فإنني لدقيقة واحدة كنت في وسط مقاطعة كيمبريدج القروية، أستمع إلى إنجليزية طليقة ورائعة. وفي الدقية الثانية، عندما عبرت خلال البوابة الرئيسة-في الأسفل على اليمين من آلة بيع المشروبات الخفيفة الأتوماتيكية السخيفة- كان كل شيء أمريكياً وبصورة لا تقبل الخطأ.

خامساً: آخر مقارنة مع التجربة البريطانية هي ربما الأكثر دلالة. شيء حقيقي أن من تخرجهم نخبة مؤسسات التعليم الأمريكية هم آخر الناس الذين يحتمل توجههم إلى ما وراء البحار، لأكثر من الزيارات العابرة وقضاء الإجازات. إن الأمريكان الذين يخدمون رحلات الواجب الأكثر بعدا هم جنود متطوعون، والنصيب الأكبر من هؤلاء هم من الأمريكيين السود أو الأفروأميركان (بنسبة ١٢,٩ في المائة من السكان، و ٢٥,٤ في المائة من احتياطي الجيش

الأمريكي). إن من المحتمل فحسب أن يتحول الأفروأميركان ليكونوا للامبراطرية الأمريكية مثلما كان السلتيون للامبراطورية البريطانية. إنهم مدفوعون إلى ما وراء البحار، بسبب الفرص الضئيلة المتاحة لهم في بلدهم. وفي الحقيقة، فإن الاحتلال للعراق إذا أدير بيد الجيش، فإنه من الصعب حينها أن يخفق في إيجاد فرص عمل للعدد المتزايد من الضباط الأفروأمريكان العاملين في الجيش. إن الناطق الصحفي باسم الجيش والشخص الأكثر تأثيراً خلال الحرب بريج جين فينسنت كي بروكس يعطي مثالاً لهذا النوع من الأفروأميركان.

لقد كان البريطانيون على أية حال دائمي القلق من إعطاء الجيش أي نفوذ كبير في إدارة المستعمرات. لقد كان خبراؤهم في الشئون النيابية قد قرؤوا وبصورة كافية تاريخ الرومان بالقدر الذي يجعلهم راغبين في الاحتفاظ بالعسكريين تحت سلطة الحكومات المدنية. إن "القبعات الصفراء" كانت هناك لتوجيه ضربات "الصدمة والرعب" الفكتورية المماثلة، كلما تزايد تململ "المحليين". من ناحية أخرى كانت شئون الحكومة الاستعمارية من اختصاص الموظفين المدنيين الكبار ممن تعلموا في إكسفورد وكيمبرج.

الآن، اسأل نفسك في ضوء ذلك: كم يبلغ عدد الأعضاء من جامعة هارفارد أو جامعة ييل في صفوف ٢٠٠٣م، الذين يفكرون بجد في شَغْلِ عملٍ ما، في إدارة ما بعد الحرب في العراق؟ إن من المستبعد جداً أن يكون الرقم عالياً. ففي ١٩٩٩/٩٨م كان هناك ٤٧,٦٨٩ طالباً جامعياً مسجلاً في جامعة ييل، وكان المسجلون منهم في فصول دراسية تهتم بحضارات الشرق الأدنى ولغاته ٣٣٥ طالباً فقط(أقل من واحد في المائة). وكان هناك طالب واحد متوحد، تخصَّص في سنته الجامعية الأخيرة في هذا المسار، يقابله على سبيل المثال ١٧ طالباً تخصصوا في دراسة السينما. إذا كان صامويل هنتينجتون على صواب وأننا نشهد "صراع حضارات"؛ فإن الطلاب اللامعين من الأمريكان يُبدون وبصورة ملحوظة اهتماماً محدوداً وقليلاً بالحضارة في الجانب الآخر.

وبعد التخرج أيضاً، يؤيد أعضاء النخبة الأكاديمية من الأمريكان بشكل عام "تعاليم أوز": "لا مكان في العالم يشبه وطنك"، ووفقاً للإحصائية الشاملة عام ١٩٩٨م، فإن عدد الذين تخرجوا في جامعة ييل بلغ: ١٣٤,٧٩٨ خريجاً. عاش أقل من ٥٪ منهم فقط خارج الولايات المتحدة. ومن هؤلاء عاشت حفنة صغيرة (٧٠ شخصاً تقريباً) في الدول العربية.

وبالتأكيد هناك خريجون جسورون من كلية كينيدي ربما يكونون متلهفين لـ "رحلات أداء الواجب" في بغداد ما بعد الحرب. وربما يريد عدد من اقتصاديي هارفارد اللامعين أن يعملوا في العراق ما عمله زوج من أساتذتهم في روسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي في أوائل التسعينات من القرن الماضي. ولكن هذا يعني السفر ذهاباً وإياباً، وكتابة حزمة من الأبحاث عن "اقتصاد المرحلة الانتقالية"، وجمع كومة من أجور الأعمال الاستشارية الضخمة، وعند ذلك الاتجاه رأساً نحو الوطن.

وبمثل الاهتمام نفسه، الذي يبديه بناةُ الدول، مِن طبقة خريجي جامعات شرق الولايات المتحدة ذات المستوى الرفيع؛ فإنك تستطيع أن تقدم مصرفاً مركزياً مستقلاً، وتُعيد تشكيلَ نظام الضرائب، وتحرر الأسعار، وتخصص المنافع الأساسية، وعندها كن في وطنك في الوقت المحدد للاجتماع الأول.

إن من الممكن بالطبع أن يكون مطروحاً للمناقشة أن النزعة الأمريكية لإعطاء زيارات جوية لسلطتها المفترضة -أكثر من الإقامة هناك- هي فقط توظيف للتقنية المتاحة. وبالعودة إلى سبعينات القرن التاسع عشر، في الوقت الذي أكملت فيه بريطانيا

بصـورة كـبيـرة شـبكتـهـا العـالميـة من خطوط السكك الحـديدية، والبـواخـر، كـان الحد الأدنى للرحلة حـول العـالم مـا زال يحـتـاج إلى ثمانين يوما على الأقل، مثلما احتفل جون فيرن في قصة فيلين فَق "حول العالم في ثمانين يوماً"، أما اليوم فإنه يمكن إنجاز رحلة كهذه في يوم واحد.

لكن المشكلة هي أنه يَصـحَب المنافعَ التي لا يمكن إنكارها للتقنيات المعاصرة عائقُ الانفصال. وعلى سبيل المثال: انتقد وزير الخـارجيـة الأمـريكي كـولن باول في وقت مـتـأخـر من هذه السنة بسبب إدارته للسيـاسـة الخـارجيـة من خـلال الهـاتف. لقـد كـان ملحوظاً أن باول سافر إلى الخارج مرتين خلال المدة المنقضية من عام ٢٠٠٣م، ولكن إحدى الرحلتين كانت إلى ديفوس في سويسرا (في٢٥-٢٦ من شـهـر يناير)، وكـانت الأخـرى إلى الشـرق الأقـصى (في ٢١-٢٥ من شهر فبراير). ونحن نستطيع فقط أن نخمن ماذا كان بإمكان الوزير باول إنجـازه بصـورة أفـضل لو أنه خـصـص زيارة لباريس -أو أنقرة- في الشهر الأخير. ولتتذكروا أيضاً ما حدث بعد ١١ أيلول عندما كـان مـوظفـو الـ سي آي إي يفـتـشـون الكليـات الأمريكية، بحثاً عن أي شخص قادر على التحدث بالبشتو بطلاقة.

لقد تبين بأن معظم موظفي الـ سي آي إي يفضلون الحياة في فرجينيا، على ما سماه البريطانيون ذات مرة "جبهة الغرب الشمالية" (هل سبق وأن شاهدت حالة دورات المياه على طريق خيبر الصاعد؟).

تضمنت إحدى فقرات الأخبار المزعجة أن فريق جارنر في مكتب "المساعدة الإنسانية وإعادة البناء" ربما يشتمل على أناس من مكتب الشؤون الخارجية والوكالة الأمريكية للإنماء الدولي "الذين عملوا بطاقة مشابهة في يوغسلافيا السابقة، وهاييتي، والصومال". ومع الأخذ بعين الاعتبار المدة القصيرة الضئيلة لتدخلات أمريكا في هذه البلدان، والأخطاء البائسة لهذا الفريق في حالتين من حالات التدخل الثلاث، والفروق الهائلة بين حالة العراق وكل الحالات السابقة، فإن الأمر لا يبدو مشجعاً. والأكثر سريالية هو ما انكشف من أن "مكتب المساعدة الإنسانية وإعادة البناء" عمل على استئجار جنود بريطانيين، للحفاظ على الأمن حول قاعدة المكتب في الكويت. إنها لمسة إمبريالية لطيفة، وكريمة، لكن حفنة من هؤلاء من الصعب أن تندمج بخفية في مركز مدينة بغداد.

وإذن، ماذا عن الدور المتعاظم للتنظيمات غير الحكومية؟ هل يحتمل أن تقدم رجالاً ونساءً يعملون على أرض الميدان، ممن يصعب جداً توفرهم، وبصورة لافتة للنظر، في الخدمة الرسمية أو الحكومية؟

صحيح أن عدداً أساسياً من الأمريكان يعملون حالياً خارج أمريكا لمنظمات غير حكومية. وأحد أصدقائي الأمريكان أفزع أصدقاءه في الفترة الأخيرة -دون أن نذكر زوجته- بمغادرته مرسمه الفني، وترك عمله في التدريس في لندن، حيث أنفق معظم سنوات عمره العشرين الأخيرة، لأخذ موقف مع مكتب مساعدات فرنسي في واحدة من أكثر جمهوريات أفريقيا الوسطى الصغيرة اضطراباً. وربما سيجد هناك الحياة الجديدة التي ينشدها. ولكن أكثر الأمريكيين الذين يقومون بعمل شيء كهذا يبدؤون صغاراً وينفقون سنة واحدة على الأقل من أعمارهم خارج الولايات المتحدة. ولا يمثل ذلك للكثيرين أكثر من "سنة استثناء" للنزاهة السياسية، قبل أن يبدؤوا دراساتهم العليا.

ولا يجب أن نعلق أملاً كبيراً على الوكالات الإغاثية التي هي مثل البعثات التبشيرية المعمرة يمكن أن تكون مزعجة جدا بقدر ما

هي مساعدة لأولئك الذين يحاولون تسيير شؤون بلد مثل العراق. إن واحدة من حقائق الاستعمار الجديد التي لا تقال أن كل أزمة دولية يحتشد من حولها سحابة من العاملين في ميدان الإغاثة، والذين قلما تكون جهودهم متممة كلياً. إنْ تمكَّن فريقُ جارنر بنجاح من فرض القانون والنظام في العراق، فإن الحياة الاقتصادية سوف تنهض سريعاً، والمساعدة الكبيرة ستكون غير ضرورية. ولكن إذا أخفق الفريق في فرض النظام، فإن العاملين في ميدان المعونات سوف يواجهون القتل بأنفسهم -مثلما فعلوا بصورة متكررة في الشيشان التي لا تخضع لقانون.

إن المأزق ربما لا يمكن حله. فالأمريكان يتوقون لحياة هادئة في وطنهم. ولكنهم منذ ١١ أيلول شعروا بأنهم مجبرون على مصارعة الأنظمة المارقة؛ أملاً منهم بأن هزيمة هذه الأنظمة سوف تفعل شيئاً في اتجاه التقليل من التهديد في المستقبل بهجمات إرهابية. إن المشكلة هي أنهم إن لم يشرعوا في هذه التدخلات بالتزام واقتناع؛ فسيكون من المستبعد أن يحققوا أهدافهم الموضوعة. إن أي شخص يعتقد بإن العراق يمكن أن تصبح ديموقراطية مستقرة في غضون أشهر -سواء أكانت ثلاثة أم ستة أم أربعة وعشرين- هو ببساطة يهيم في الخيال.

من أين إذن تأتي نخبة الاستعمار الجديد؟

ليس حصريا كما أتمنى من الجيش الاحتياطي من الجنرالات العاطلين عن العمل وذوي الاتصال الجيد بالبنتاغون. إن الحاجة ماسة إلى الشروع وبسرعة في العمل على تشجيع الطلاب الأمريكيين في الجامعات الريادية على التفكير بجدية أكبر، في وظائف ماوراء البحار -وعندما أقول ماوراء البحار فإنني لا أعني لندن-. هل هناك على سبيل المثال منح جيدة وكافية لجذب انتباه طلاب الصفوف الجامعية والدراسات العليا مخصصة لدراسة العربية؟ كم عدد الشبان والشابات الذين يتخرجون حالياً بقدرة استيعابٍ وظيفي للصينية؟ إنها بعد كل شيء لغة البلد الأكثر قربا للتحول إلى منافس استعماري لنا، وإن الرئيس النافذ بوش يحتاج وبصورة عاجلة إلى الاقتناع بما إذا كان في اتفاق ساري المفعول مع كوريا الشمالية.

وبعد كيبلينج، ربما كان جون بوشان القارئ الأكثر مقروئية بين من أنتجهم الاستعمار البريطاني يجسد في روايته المثيرة الصادرة عام ١٩١٦م "الحجاب الأخضر" بصورة لا تنسى بريطانيا الاستعمارية في شخص ساندي آربوثنت -مستشرق موهوب جداً

يستطيع أن يَعبُر كمغربي في مكة، أو كبشتوني في بيشاور-. إن النقيض لآربوثنت هو جون سكانتليبوري بلينكرون المليونير الأمريكي النزق: "رفيق كبير مع وجه محلوق جيداً، شاحب وسمين" و "زوج من العيون الطافرة بالنعاس، مثل ثور يَجترّ" تلك العينان لا تريان "أي شيء ملطخ بالدم، أكثرَ من الانتخابات الرئاسية" هكذا يخبرنا ريتشارد هاني بطل بوشان في هذه الرواية. إن الرمزية فظة بعض الشيء، ولكن لديها هنا ما تعبِّر عنه.

حسناً، الآن شاهَد البلينكيرنيون (نسبة إلى بلينكيرون) شيئاً أكثر تلوثاً بالدم من الانتخابات. ولكن هل ستشحذ شهيتهم لامبراطورية من النموذج البريطاني؟ أعتقد أنها ستفعل فقط إذا كان الأمريكيون يعيدون التفكير في موقفهم من العالم خارج حدودهم.

وحتى يكون هناك أمريكيون كثر ليسوا راغبين فحسب، بل يتوقون إلى تحمل مغامرات "عبء بناء الأمم"، كالاحتلال الحالي للعراق، سينقص المشهد مكون أساسي أو حيوي. ودروس الخبرة الاستعمارية البريطانية واضحة: إنك بوضوح لا تستطيع أن تنال امبراطوريةً مستعمِرةً؛ إنْ لم يُوجَد بها استعماريون مساندون

لاستعمارها ونفوذها -هناك بعيداً على نقاط الهيمنة- يُسيِّرون شئونَ المستعمرات.

هل يستطيع المليونير الأمريكي بلينكرون أن يتحول إلي شخصية اربوثنت البريطاني كما تصفه رواية بوشان؟ ربما. وبعد كل شيء في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، كان الجيل الذي كان قد افتقد القتال للتويغادر هارفارد وييل محملاً بحماس بيوكانن لحكم عالمي. وانضم الكثير منهم إلى الـ سي آي إي، وكرسوا حياتهم للصراع مع الشيوعية في أراض متباعدة من كوبا وحتى كمبوديا. ورغم ذلك -وكما تنبأ جراهام جرين في كتابه: "الأمريكي الهادئ"- فإن جهودهم فيما كانت تسميه بريطانيا "الحكم غير المباشر" كانت مقيدة بالحاجة إلى إسناد الحكام المحليين بسرية زائدة حينا وأقل أحيانا أخرى. (المنزلة المتواضعة للمحليين الذين دعمتهم الولايات المتحدة لم تساعد أيضاً). اليوم، الرواية المشابهة لتلك التي عززت الاستراتيجية الأمريكية في فيتنام -أن الولايات المتحدة لم تكن تحاول أن تحيي أو تبعث الدور الاستعماري الفرنسي في أندنوسيا- يتم الثرثرة بها في واشنطن لتبرير ما سيجري في العراق. بالتأكيد فإنها قد تبدو مثل انبعاث

الدور الاستعماري البريطاني في العراق، ولكن وبأمانة: كل ما نريده هو إعطاء العراقيين الديموقراطية ومن ثم العودة إلى وطننا.

طالما لم يجرؤ الأمريكان على ذكر اسمهم -طالما واصلوا هذا التقليد من الكذب المنظم- فإن شباب وشابات اليوم الطموحين سوف يلقون نظرة واحدة على مشاهد عراق ما بعد الحرب، ويقولون بصوت واحد: "لا تذهبوا أبدا إلى هناك".

إن الأمريكان يحتاجون أن يذهبوا إلى هناك. إذا أصر الأفضل والأذكى على ملازمة الوطن؛ فإن مشروع اليوم الاستعماري غير المتحدث عنه، ربما يَشهد نهايتَه غداً، وبصورة يعجز عنها الوصف.

■ لماذا نحتاج أوروبا؟

"سوف يُسيء أيُّ مجتمعٍ ضعيفٍ عسكرياً، تقديرَ المشكلات، التي لا يمكن حلها بطرق حضارية فقط، وسيُسيء كذلك أي مجتمعٍ قويٍّ عسكرياً، تقديرَ المشكلات، التي لا يمكن حلها بالطرق العسكرية منفردةً. إن كلا الخطأين محتملان، وكلاهما يمكن أن يكون قاتلاً."

ستيفن هولمز

لماذا نحتاج أوروبا؟[١]

ستيفن هولمن[٢]

إن رفض فرنسا وألمانيا قبولَ تعريفِ إدارة بوش للتهديد العراقي كَشَفَ بوضوح عن ضعف العقد الطويل للحلف الأطلسي. يُحاول روبرت كاجان تَقصّي ما وراء حروب الكلمات؛ ليكتشف: لماذا بعد الحرب الباردة "يَفهم كلٌّ من الأوروبيين والأمريكان بعضَهم الآخر بدرجة أقلَّ فأقل". إن من الصعب تصديق نظريته القائلة بأن الأوربيين والأمريكان يواجهون مشكلةً في تنسيق سياساتهم الخارجية؛ بسبب كون الأوروبيين مثاليين ومُضَلَّلين، في حين أن الأمريكيين واقعيون، ولا يخشون من مواجهة الحقيقة. لقد طَوّر في البداية هذا الادعاءَ غير العادي، بنشره مقالاً في صيف ٢٠٠٢، ثم قام الآن بتحديث المقال، وتوسعته إلى كتاب. وقد أثار ذلك المقال - وبسرعة - ضجةً بين أوساط الدبلوماسيين الأوروبيين، وصانعي السياسة.

---

(١) مجلة ذي أميركان بروسبكت المجلد ١٤، العدد ٤، نيسان/إبريل ٢٠٠٣م. وهذه الدراسة قراءة نقدية لكتاب: عن الجنة والقوة: أمريكا وأوروبا في النظام العالمي الجديد، تأليف روبرت كاجان، الناشر: نوبف، ١١٢ صفحة.

(٢) أستاذ العلوم السياسية في جامعة برنستون، وأستاذ القانون في جامعة نيويورك.

ولكن كيف أمكنَ لأمريكيٍّ محافظٍ ومتدين (مثل كاجان) أن يَنجح في إثارةِ مثلِ عواصف الروح هذه بين الأوروبيين؟

لقد فعل ذلك جزئياً عندما اقترح أن الأمم الأوروبية -وبغض النظر عن منازعاتهم غيرِ النهائية- تَجمَعُهم قِيمٌ فيما بينهم، أكثر مما يتقاسمونه مع الولايات المتحدة. وهذه هي الفكرة التي يرغب بعض الأوروبيين على الأقل بأن تكون حقيقية. لقد جذب كاجان الانتباه بإشارته إلى أن الفوضى الخاصة بالسياسة الأوروبية؛ قد ساهمت على نحو مهلك، في السياسة الأمريكية الأحادية الخطيرة.

وبينما يذكر كاجان أن "أزمة العراق قد طَرحتْ مشكلةً عبر الأطلسي، في المجال الممكن الأصعب"، فإنه يحاول البحث عن جذور النزاعات الأمريكية-الأوروبية، في الوضعيات العسكرية غير المتوازنة للقوتين الاقتصاديتين الأعظم في العالم. وبرأيه فإن "الفرقَ الأساسي أقلُّ ارتباطاً بالثقافة والفلسفة، من ارتباطه بالقدرة".

إن المقدمة التي يبني عليها كاجان نقاشَه هنا مثيرةٌ للفضول: فبدلاً من بحثِ كلٍّ من الدول والأفراد عن وسائل لتحقيق أهدافهم الموضوعة مسبقاً، فإنهم -حسبما يعتقد كاجان- يُكيِّفون أهدافَهم

المرغوبة لاإرادياً حسب مواردهم المتاحة. وباختصار، فإن القدرات توجد الدوافع؛ وبما أن الولاياتِ المتحدة عملاقٌ عسكريٌّ ضخم، وأوروبا قزمٌ عسكري؛ فإنهما لن يَتفقا أبداً، حول شكل المخاطر التي يواجهانها. وقد اقتبس كاجان فكرته هذه من الحكاية الشعبية التالية:

من السهل جداً فهم نفسية الضعف. إن شخصاً مُسلحاً بسكين فقط؛ قد يُقرِّر أن دُبّاً يَبحث عن فريسة في الغابة خطَرٌ يُمكن تحملُّه، وكذلك فإن محاولةَ صيدِ الدب بسكينٍ فقط أكثرُ خطورةً من الاستلقاءِ أرضاً مع الأملِ بعدم قيام الدب بالهجوم. ولكن الرجلَ نفسه عندما يكون مسلحاً ببندقية؛ فإنه سوف يقوم بعمل حسابات مختلفة، حولَ ما يُشكِّله الخطرُ المحتمل. لماذا عليه أن يخاطرِ بأن يكون مُمزَّقاً حتى الموت إذا لم يكن مضطراً لهذه المخاطرة؟ هذه هي تماماً نفسيةُ الإنسان الطبيعي، التي تَدُقُّ إسفيناً بين الولايات المتحدة وأوروبا.

إن هذه المقالة الصغيرة تتضمن لبَّ نقاش كاجان؛ فليس من السهل على الأمريكيين الذين تسلحوا حتى أسنانهم، أن يجازفوا مراراً في البحث عن وحوش للقضاء عليهم، بينما يقوم الأوروبيون

الضعفاء عسكرياً، بتجنب المواجهات بجبن. وفي الواقع فإن القوى الضعيفة، تَفشل في اتخاذ التدابير الكاملة للتهديدات الفعلية، غارقةً في التوهم بأن الأخطار المحدقة، يمكن تهدئتُها بالحيلة الدبلوماسية، والقانونِ الدولي؛ بينما تكون القوى القوية قادرةً على رؤية العالم الهائج، كمكانٍ خطرٍ مخيف، ستَفنى فيه الحريةُ إذا لم يُدافَع عنها بالقوة. وبالنسبة للأوروبيين، فإنهم يريدون منا أن نترجِم التزاماً نحو التعددية، والدبلوماسية، والقانون الدولي كإشارة على الأخلاق العليا. ولكن كاجان ينظر إلى الولَع الأوروبي بالحلول متعددة الأطراف، بصفته علامةً على العجز، أو ربما تعبيراً عن الاستياء. وبالبحث في سلالة الأخلاق النازية، يجادِل الكاتب بأن الأوروبيين يحاولون خلسةً تجريد حلفائهم الأمريكيين، عن طريق توظيف "استراتيجيات الضعف". وهم يأملون في إعاقة الولايات المتحدة؛ بدفعها ببطء: نحو المفاوضات الدبلوماسية، وأنظمة الشرعية الدولية.

"هنا يكمن العمل الفذ من الدهاء وعدم المباشرة" -كما يقول كاجان- "فهم يريدون التحكم بالشخص الجبار من خلال اللجوء إلى ضميره"، ويُحذِّر أيضاً من أن هؤلاء الأوربيين الماكرين بدرجة شيطانية، قد يَنجحون في إخراج الولايات المتحدة عن مسارها من

الواقعية المتزنة، إلى مطاردة الأوهام السلمية، بمساعدة مثاليات ويلسون، وليبراليي الحقبة الفيتنامية.

إن هذه المحاولة التحررية الأوروبية لإغراء الولايات المتحدة، ودفعها في اتجاه التخلي عن الحرب، بوصفها وسيلةً في السياسة الخارجية؛ هي -كما يؤكد كاجان- حماقةُ انهزامٍ ذاتي. ولغاية اليوم، وبعد أكثر من نصف قرن من تلاشي النازية الألمانية؛ فإن مدنيي أوروبا المدللين ما زالوا "معتمدين على رغبة الولايات المتحدة في استخدام قدرتها العسكرية، لردع أو هزيمة أولئك، الذين ما زالوا يؤمنون بسياسة القوة في أرجاء العالم". لذلك يجب أن يَعترف القادة الأوربيون ببساطة بـ "الضرورة الملحة لوجود أمريكا القوية، وحتى المسيطرة". وإذا تعلم الأوروبيون الإذعانَ للولايات المتحدة؛ فإن كاجان يتوقع أو يأمل بأن المسؤولين الأمريكيين سوف يجاملونهم؛ من خلال تجنبهم الرفضَ دون مبرر، والذي يبدو وكأنه لا هدف له سوى تضئيل الأهمية الذاتية الأوروبية.

أمريكا إلهُ الحرب (Mars) **أوروبا ربةُ الجمال**(Venus):

قد يبدو إطارُ عمل كاجان الفكري غير معقَّد، ولكنه يَدّعي أساساً فلسفياً. مقدمتُه المنطقية هي أنَّ أيَّ مملكةٍ أهلية بُنيتْ عبر

مقاييسَ متحررة؛ حيث القوة والاحتيال مقيدان، وحكم القانون هو الذي يسود؛ يُمكنها أن تكون مستقرةً ومحميةً بواسطة سياسةٍ خارجية قوية؛ تُوظَّف فيها القوةُ - وحتى الخداع - بقسوة، في مواجهة الخصوم الذين لا ضميرَ لهم، ولا تُحترم فيها القوانين إلا عندما تكون ملائمةً فحسب.

إن الكانتيين (نسبة إلى الفيلسوف كانت) الحالمين بالسلام والإقناع قد لا يَعرفون ذلك، ولكنَّ مثالياتهم التحررية المُبالَغ فيها تعتمد على تمنيات هوبزية (نسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز) بتطبيق العنف المنظم، من دون الأخذ بعين الاعتبار قوانين ردع البربر المتحفزين على الأبواب. وإن من السذاجة الاعتقاد بأنَّ عالماً مضطرباً خطيراً يُمكِن إدارتُه بواسطةِ قرارات الأمم المتحدة، والمعوناتِ الخارجية، والمفاوضاتِ الدبلوماسية، والعلاقاتِ التجارية.

إن نقاش كاجان هنا الذي يحمل بعض القوة، سوف يكون مأخوذاً بعين الاعتبار، حتى عند أولئك الذين يعارِضون بعنفٍ ما يَطرحُه. ولكننا لا يمكن أن نقول مثل هذا عن الأسطورة العاطفية الذي صاغ في قالبها هذا الرأي. تماماً مثلما أَحب وطنيو فترةِ ما قبل الحرب العالمية من الألمان معارضة هيلدن وهاندلر، يستمتع

كاجان بمقارنة الأمريكان الرجال، بالأوروبيين المتأنثين:"الأمريكيون قادمون من المريخ، والأوروبيون من الزهرة" .

إن الأوروبيين النافرين من استخدام السلاح قادرون على العبث حول الحديقة الكانتينية؛ وذلك فقط لأن المسلحين الأمريكان في الخارج يحرسون الأدغال الوحشية، لحماية "فردوس ما بعد التاريخ" من التعرض للدمار، على أيدي: آيةُ الله، وصدام حسين، وكيم جونج. وقد وصل كاجان بتفسيره للعلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي إلى نهاية مفاجئة؛ عندما أعاد ابتكار نفسه في الفقرة الأخيرة كمستشار زواج، يَحُثُّ الزوجين المتخاصمين على تبادل القبل، وإصلاح البين من أجل تحقيق مصالحهم ومصالح العالم.

إن هذا مثير للضحك؛ مما يؤكد أن كاجان في الأساس غير جاد . ولسوء الحظ، فإن محاولته المتزنة في تتبع أثر الخلاف عبر الأطلسي من خلال الفروقات في القدرة العسكرية؛ تتحطم على صخور تجربة الحرب الباردة، عندما اتفق الأمريكان والأوروبيون على تعريف التهديد المشترك، بالرغم من أن قدراتهم العسكرية كانت كما هي اليوم غيرَ متماثلةٍ تماماً .

إن الدول الضعيفة عسكرياً ستذعن أحياناً بهدوء لحلفاء أقوياء عسكرياً، وفي أحيانٍ أخرى ستُعارِض بعنف؛ وبالتالي فإن القدرات وحدها لا تَتحمَّل العبءَ الذي يلقيه كاجانُ عليها. إضافةً لذلك، هناك تفسير أبسط يطرح نفسه؛ لم يعد الأوروبيون يشعرون أن الولايات المتحدة تحميهم من تهديد خطير؛ لأن احتمالية وجود غزو عسكري من الشرق قد تلاشت. يدعي كاجان أنه بدون مساعدة الولايات المتحدة ستكون أوروبا غير قادرة على حماية نفسها من اجتياحها روحياً ومادياً، من قبل عالَمٍ ما يزال يتقبَّل قانونَ "الوعي الأخلاقي". ولكن مَنْ هو بالضبط هذا الذي يوشك أن يَجتاحَ أوروبا "روحياً ومادياً"؟ ربما يكون هناك جواب جيد لهذا السؤال، لكن إذا كان كاجان يعرفه فإنه لم يَبُحْ به. إن عدم وجود جوابٍ واضحٍ ومقنعٍ لسؤال "ما هو التهديد العسكري؟" يُفسِّر الخلافاتِ في التحالف بأنها خلافات اقتصادية، أكثر منها فروق في القدرة العسكرية.

اللغز الأوروبي

لكن حتى إذا كان كاجان مصيباً بأن المستويات المختلفة من الإعداد العسكري، تزيد بالضرورة من الاختلاف في تقديرات

التهديدات في أوروبا والولايات المتحدة؛ فكيف يفسر المستويات المختلفة للغاية من الاستعداد العسكري؟ إن أوروبا غنية بما يكفي لتكون قوة عسكرية كبرى، فلماذا إذن كانت الأمم الأوروبية معارضة لزيادة إنفاقها الدفاعي، أو حتى الاتفاق على جدولة قوتهم للتدخل السريع؟

إن جواب كاجان على هذا السؤال الحرج غير واضح؛ لأنه إلى حد ما لا يستطيع إثارة الزوال الموضوعي للتهديد العسكري المشترك. ربما قامت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بإحالة أوروبا على التقاعد من تاريخ العالم، وأعادت برمجة الألمان المسلحين إلى تجار ومدنيين مسالمين، وربما تكون الذكريات القاسية للعسكرية الشوفينية قد ثبّطت من رغبة الأوروبيين في الحرب، وربما استمر بعض الأوروبيين بالخوف من أن الاندفاعات الألمانية القاتلة قد تستيقظ من جديد في أوروبا مُعَسْكَرَة مرةً أخرى، وربما تكون التجربة الناجحة في إنشاء الاتحاد الأوروبي قد أعطتْ الأوروبيين تصوراً بأن الأساليب الشرعية المشابهة يمكن استخدامها لتشكيل نظام عالمي جديد. ويمكن ببساطة أن يكون الأوروبيون منتفعين ومن دون مشاركة في دفع الأكلاف، وهم بذكاء يَشترون

الهدوءَ بالإنفاق الاجتماعي السخي؛ على افتراض أن دافعي الضرائب الأمريكان؛ سيَدفعون فاتورة الأمن الأوروبي، وربما كانوا ببساطة غير قادرين على التحول بسرعة من حالة الدفاع الإقليمي، الذي عيَّنَتْهُ الولاياتُ المتحدة لهم أثناء الحرب الباردة؛ إلى سياسة إبراز القوة، التي قد تنساق معها إلى التنافس عسكرياً مع الولايات المتحدة اليوم، أو أن السكان الأوروبيين يشيخون، وروحهم المعنوية تتضاءل، وقد شهدت عملية الانحلال السكاني بلوغَ الصفر أو حتى درجة التناقص السلبي، في معدلات نمو السكان. هكذا يكرر كيجان هذه العوامل المتعددة، ولكنه يُعطي توجيهاً أقل، فيما يتصل بنوع العلاقات المتبادلة بين هذه العوامل، أو تحديد حجم تأثير كل منها.

ولكن الضعف الحقيقي في مناقشاته يتمثل في شيء آخر. فمهما يكن تفسيرنا للانتقادات الأوروبية للسياسة الأمريكية، فإنه يبقى من غير المنطقي القول بأن الفرنسيين لا يتفقون مع السياسة الخارجية الأمريكية؛ لأنهم يحبون السلام. فالفرنسيون ليسوا مشغولين بِرَيِّ زهرةِ التولب في حدائقهم المسيَّجة، بل هم في الخارج "في الأدغال" في ساحل العاج. وحتى كاجان يعترف بأن

الجنود الفرنسيين والبريطانيين (وحتى الألمان) يرغبون أكثر من نظرائهم الأمريكان في امتصاص قدرٍ أكبر من القتلى. ثم إن طرحَه مجدداً للمقارنة بين الأمريكان "الرجال"، والأوروبيين "النساء" أمر مثيرٌ للانتباه، ولكنه زائف.

إن كاجان يخبرنا وبشكل متكرر، بأن "أوروبا الجديدة قد ظهرت كفردوس... حرة من القوانين، وحتى من فكرة سياسات القوة". ولكن ما هي أوروبا التي يتحدث عنها؟ إن الشباب الجزائريين في باريس لديهم خبرة قليلة في النعومة الإنسانية للسياسة الفرنسية. وإن المسؤولين المنتخبين في بولندا أو هنغاريا لن يوافقوا على أن أوروبا الجديدة هي مملكة تحرَّرتْ من انعدام التعادل في القوة، حيث يُعامَل جميع الناس بمساواة تحت سيادة القانون. إن أحد مصادر تشوش كاجان الشاملة هي في رغبته الغريبة في معاملة القانون والقوة كنقيضين. إنه يعرف أن القانون من دون دعم يكون عديم الفائدة، ولكنه لا يفكر من خلال المعاني المتضمنة في هذه الحقيقة البسيطة. وعلى النقيض من ادعاءاته المكررة؛ فإن القانون لا يمحو عدم التوازن في القوة. إن التحيز المتغلغل لكل نظام معروف باحتكامه لدور القانون، يطرح أن القانون

يوضح ويوازن انعدام التناسق في القوة. (لأنه لا يوجد طرف قوي بما فيه الكفاية ليحكم بدون درجة من التعاون الطوعي، فالقانون يوازن انعدام التماثل في القوة عن طريق تخفيف حدتها إلى حد ما).

إن رغبة القانون هذه في النظر بمحاباة إلى مصالح الأقوى؛ تفسر كون الولايات المتحدة هي القوة الريادية في العالم، ونصيرة القانون الدولي. ويمكن أن يكون هذا غير مفهوم؛ لو كان القانون ببساطة مجرد قيدٍ موضوعٍ من قبل الضعيف على القوي. لقد أنشأت الولايات المتحدة النظام القانوني الدولي الحالي، واستخدمته لمدة نصف قرن، لمصلحتها هي وحلفائها. إن الأزمة الحالية ضد العراق قد نشأتْ، ليس بسبب أن الأوربيين كانوا يحاولون إعاقة سيادة الولايات المتحدة، بفرض القانون الدولي، ولكن للسبب المعاكس. ربما لم يستطع الأمريكان إقناع الأوربيين في التسعينات بأخذ القانون الدولي (في شكل قرارات من الأمم المتحدة) على محمل الجد. وبكلمات أخرى فإن الأزمة العراقية بحد ذاتها تكشف عن يأس المقابلة التقليدية بين حياة الأوربيين في عالمٍ كانتيٍّ (نسبةً إلى كانت) يمثل الإقناع والقوانين؛ وحياة الأمريكان في عالم يتشكل من القوة والخداع.

العدسات العسكرية

إن نقاش الكتاب الرئيس يستمر في الانهيار تحت الفحص، لأنه يعتمد على خفة اليد، وتظهر مغالطته الأولية في التطبيق الانتقائي للمقدمة النظرية. يمكن للسياسة الخارجية في دولة ما أن تصبح غير واقعية؛ إذا فَضّلتْ استخدام أدواتٍ تَمنع صُنّاعَ القرار من مواجهة التهديدات، التي يجب مواجهتها بوسائل أخرى. غير أننا من هذه المقدمة الصحيحة -على أية حال- لا نستطيع الاستنتاج -كما فعل كاجان- أن القدرات العسكرية الأوروبية الهزيلة، تَجعل التقديرَ الأوروبي للتهديدات غيرَ واقعي؛ بينما القدراتُ العسكرية الهائلة للولايات المتحدة، تَجعل تقديرها للتهديدات واقعياً.

إن الأوهام عن الدغل ليست أقل إيذاءً من الأوهام عن الحديقة. إن كاجان يتلمس هذه النقطة عندما يجيز بأن " الأقوى في الحقيقة ربما يعتمد على القوة أكثر مما ينبغي". ولكنه لم يُدمِج هذا التبصرَ العميق في مناظرته الأساسية. بل إنه في الواقع لم يُكرِّس أي اهتمام لدور عدم المنطقية في صنع السياسة الخارجية الأمريكية، مع أنه يَعرف جيداً، بأن اندفاع المبشر يَعُمُّ

فهمَ واشنطن لدور الولايات المتحدة العالمي، مفسداً مقارنته النظيفة بين الأمريكان الواقعيين، والأوربيين المثاليين.

سوف يُسيء أيٌّ مجتمعٍ ضعيفٍ عسكرياً تقديرَ المشكلات التي لا يمكن حلُّها بطرق حضارية فقط، وسيُسيء كذلك أيٌّ مجتمعٍ قويٍّ عسكرياً تقديرَ المشكلات، التي لا يمكن حلُّها بالطرق العسكرية منفردةً. إن كلا الخطأين محتملان، وكلاهما يمكن أن يكون قاتلاً، ولكن كاجان أثار الانتباهَ إلى المشكلة الأولى فقط.

هذا هو السبب -بالرغم من الحق العرضي في ملحوظاته عن وهم الذات الأوروبي- في أن كاجان يُفهَم على أنه مدافعٌ عن إدارة بوش، أكثر من كونه محللاً للسياسة الخارجية. هل تعد باريس وبرلين حقاً في حالةٍ أكثر إنكاراً للحقائق غيرِ المحببة للذات مِن حالة واشنطن؟ هل لدى الأوروبيين رؤية أكثر تشوهاً عن بيئة الأمان المعاصرة أكثر مما لدى الأمريكان؟ إن كاجان يعتقد ذلك، ولكنه مخطئ.

إن قوةَ الولايات المتحدة العسكرية الشاملةَ منقطعةَ النظير؛ ليست أداةً فقط، ولكنها عدساتٌ مضلِّلة، تُشوِّه الطريقة التي تُعرِّف بها إدارة بوش التهديداتِ الرهيبة التي تُواجه البلد. إن المشكلات

القاسية التي لا يمكن مواجهتها بانتشار أحادي للقوة العسكرية الأمريكية (كالانزلاق الكوري الشمالي المرعب ووشيك الحدوث لتصبح إضافة جديدة إلى سلسلة القوى النووية المتكاثرة) قد تلاقي اهتماماً أقل مساندة، من المشكلات التي يمكن مواجهتها بشكل أحادي وعسكري (كعدم خضوع العراق لقرارت الأمم المتحدة). إن تبعية النفط، وسوء الاستثمار في مهارات اللغة الأجنبية، وظاهرة ارتفاع حرارة الأرض، هي ثلاثة أمثلة على تهديدات الأمن الوطنية المهملة، والتي لا يمكن القول: إنها تمثل درجةً أقلَّ من الحدة؛ لأنها فقط وببساطة لا يمكن أن تُحل باستخدام قوة عسكرية أحادية.

إن حديث كاجان عن الأبطال الأمريكان الذين يعيشون في العالم الوحشي يخفي هذه الأمور، والأمور الأخرى غير المنطقية، التي تؤثر على سياسة جورج بوش الخارجية. إن اعتقاداً أيديولوجياً بأن الحكومة هي المشكلة، وأن التبادلات الخاصة المنظمة بسهولة هي الجواب -على سبيل المثال-؛ قد أغرى إدارة بوش بفكرة مؤداها: أن الدول المارقة أكثر خطورة من الدول الفاشلة. ونتيجةً لذلك، تَظهر واشنطن الآن في وضع أكثر سوءاً من جهة تقديرها لتهديد دخول الأسلحة العراقية ذات الدمار الشامل سوق الجيوش

السرية، بعد تدمير تحكم بغداد المركزي بهجوم أمريكي، وقبل أن تُؤمِّن قواتُنا منطقةَ العراق (يقارب حجمُها كاليفورنيا) المحاطة من كافة الجهات بمسالك تهريب متطورة. إن اعتقادات مسيحية عميقة تمنع الإدارة الأمريكية من استيعاب التهديد الفادح المطروح على الولايات المتحدة عبر اليقين الديني. إن اللوبيات المحلية قصيرة النظر، وتَنافُس الوكالات المتعددة، والعادات العقلية المرتبطة بالحرب الباردة، قد شوَّهتْ جميعها فهم الإدارة لبيئة الأمن الحالية، ولغيرها.

ارتباط أوروبا

ولكن سوء التقدير الأكثر خطورة وضراوة، والمؤثر على مقاربة بوش للشؤون الخارجية؛ إنما يتعلق بالحرب ضد الإرهاب، العابر للدول. يؤكد كاجان أن أوروبا "لديها القليل لتقدمه للولايات المتحدة من الناحية العسكرية الاستراتيجية منذ نهاية الحرب الباردة". وفي داخل الإدارة الأمريكية تَعتمِد هذه الفكرة على الرأي القائل بأن "نهاية الحرب الباردة لم تقلِّل من بروز القوة العسكرية". إن القوة العسكرية هي مركزية للأمن الأمريكي اليوم، تماماً كما كانت أثناء الحرب الباردة، وهذا ما يريد كاجان منا أن نؤمن به.

وبعد الحرب الباردة، تَعْني "القدرة العسكرية الأوروبية" أن حلفاءنا السابقين، لم تعد لهم صلة أبداً، بأمن الولايات المتحدة. إن هذا هو الافتراض، الذي يحمله هذا الكتاب، بجانب الفكرة المتعجرفة عند إدارة الرئيس بوش، نحو الحلفاء الأوروبيين.

إن كون هذا الافتراض مغالطة هو أقل شيء يمكن قوله. إن هجمات ١١ سبتمبر كانت جزئياً مخططة ومنظمة وممولة في أوروبا. إن المجتمعات الإسلامية التي يكمن فيها الإرهاب قد تبقى القواعد المحتملة لهجمات القاعدة المستقبلية على الولايات المتحدة. أي ستبقى أوروبا منطقة خط أمامي في الحرب ضد الإرهاب كما كانت في الحرب ضد الشيوعية.

وكما تكشف التقارير الصحفية اليومية فإن السياسة الأوروبية قد عملت بطريقة مناصرة كلياً، وقامت باعتقال الإرهابيين المشكوك بهم. في كلماتٍ أخرى -وبغض النظر عن وضعية كاجان بوصفِه واقعياً غيرَ جادٍّ- يمكن القول بأنه قد فشل جزئياً في إدراك الدرجة التي تمّتْ بها إعادة هيكلة محيط الأمن القومي الأمريكي منذ ١١ سبتمبر. لقد أصبحتْ الجبهتان المحلية والخارجية، وبصورة مربكة، مُشوَّشَتين. وعلى استراتيجية الأمن

المحلي أن تعمل في مجالٍ أصبحت فيه للسياسة والعسكرة أهمية متساوية. قد يساعدنا هذا التغيير على فهم الفكرة الخاطئة لسياسة بوش الخارجية، ففي بيئة الأمن الجديدة الخاصة بنا، وبالرغم من وجود الاعتقاد السائد؛ فإن الولايات المتحدة ليست القوة العظمى الوحيدة في العالم.

إن الحرب على الإرهاب العالمي تعتمد على جمع المعلومات والأعمال البوليسية، وفي هذا المجال فإن الأوربيين يمكن أن يكونوا أي شيء آخر، ولكنهم ليسوا أقزام الأمن. إن قدراتهم على الاستجابة بفعالية لتهديدات الأمن الحالية؛ تُنافِس تلك الخاصة بالولايات المتحدة. إن مهارات الأوربيين اللغوية، ومعرفتهم الحضارية لوحدها؛ تضمن لهم مساهماتٍ في أمن الولايات المتحدة. فقد يقومون بمهام ضرورية، من المراقبة، والتسلل، وتشكيل خطر، على ما تُعد آليتنا العسكرية، غير قادرة عليه. ولنصرف النظر عن تفاهة أن الولايات المتحدة لا تستطيع حماية نفسها بدون المساعدة الأوروبية، فقد صرّح كاجان أن "الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بذلك وحدها"، وهذا بشكل واضح هو التفكير (إذا كنت تستطيع تسميته بذلك) بخلاف ملاحظات الإدارة المقلِّلة

بصورة لا عقل فيها من شأن أوروبا. صحيح أن القادة الأوربيين قد يكونون أحياناً كثيري الانتقاد والغباء. ولكنا لا نستطيع أن نتحمل -في متابعةٍ لانفعالنا الشديد - تقويضَ الأمن الأمريكي؛ بتسميم المزيد من العلاقات مع حلفاء محتملين، في وقت من الخطر القومي غير المسبوق.

https://maktbah.net

■ العراق محاولة تجريبية

"إن سيناريوهات التغييرات الكاسحة في الشرق الأوسط المفروضة بالقوى المسلحة الأمريكية، كانت ذات يوم، مجرد أوهام فكرية -وحتى سخيفة-، ولكنها الآن مأخوذة على محمل الجد، وتُعطي تأثيراً لا يحصى من خلال غزو العراق... إن الولايات المتحدة تقول لدول العالم: إذا كنتم غيرَ قادرين على الدفاع؛ فسنهاجمكم عندما نُريد، ولكنّ إذا كنتم تَملكون الردع؛ فسنتراجع، لأننا نهاجم فقط الأهدافَ غيرَ القادرة على المقاومة... لهذا السبب وحده، من المحتمل أن تؤدي هذه الحرب إلى انتشار كلٍّ من الإرهاب، وأسلحة التدمير الشامل."

نعوم تشومسكي

العراق .. محاولة تجريبية[١]

حوار مع نعوم تشومسكي[٢]

راماشاندران: هل يُمثل العدوان الحالي على العراق امتداداً لسياسة الولايات المتحدة الدولية في السنوات الأخيرة، أو مرحلة جديدة مختلفة في تلك السياسة؟

نعوم تشومسكي: إنه يُمثِّل مرحلةً جديدةً بشكلٍ بارز، وهو لا يُعَدُّ بلا سوابق، ومع ذلك فإنه جديد.

يَجِبُ أن يُنظر لهذا العدوان على أنه محاولةٌ تجريبية؛ فالعراق يُنظَر إليه على أنه هدفٌ بلا دفاع إطلاقاً، وسهلٌ جداً. ومن المفترض، - وعلى الأرجح أن هذا صحيح - أن المجتمع العراقي سيتهاوى، وأن العسكريين سيختفون، وستُصبِح الولاياتُ المتحدة المسيطرةَ على الوضع، وستُنشِئُ الحكومةَ التي تتماشى مع اختيارها، ومع قواعدها العسكرية. بعد ذلك سيتوجهُ الأمريكان إلى

(١) حوار مع نعوم تشومسكي، أجراه معه راماتشاندران ، لـ (فرنت لاين إنديا) في ٢ نيسان ٢٠٠٣م.

(٢) أستاذ اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وأحد أبرز موسسي علم اللسانيات المعاصر، وأشهر معارضي سياسات الحكومة الأمريكية.

الحالات اللاحقة الأصعب، وقد تكون المنطقةُ اللاحقة منطقةَ سوريا، أو إيران، أو غيرهما.

تشمل المحاولةُ التجريبيةُ في العراق محاولةَ تأسيس ما تُسمِّيه الولاياتُ المتحدةُ بـ"المعيار الجديد" في العلاقات الدولية، والمعيارُ الجديد هو: "الحرب الاستباقية" (لاحظ أن المعايير الجديدة لا تُقيمها سوى الولايات المتحدة). ولذلك -على سبيل المثال- عندما غزت الهند شرق باكستان لتنهي مذابح مخيفة؛ فإنها لم تؤسس معياراً جديداً للتدخل الإنساني، لأن الهند كانت الدولة المخطئة، إلى جانب معارضة الولايات المتحدة لذلك العمل بشدة.

هذه ليست حرباً وقائية، فهناك فرق حاسم. إن الحربَ الوقائية تَحمِل معنى. إنها تعني - على سبيل المثال-: إذا كانت الطائرات تطيرُ عَبْرَ الأطلسي لتضربَ الولاياتِ المتحدة، فإنه يُسمح للولايات المتحدة أن تُسقِط هذه الطائرات، حتى قبلَ أن تضربَ أهدافَها، ولربما يُسمَح لها أن تُهاجِم القواعدَ الجوّية التي منها خرجتْ الطائرات. إن الحربَ الوقائية هي ردٌّ على هجوم مستمر، أو وشيك الحدوث.

إن مبدأ الحرب الاستباقية مختَلِفٌ تماماً، فهي تقتضي أن الولاياتِ المتحدة -لوحدها بَعد أنْ لم يَعُدْ أحدٌ يَمتلِكُ هذا الحق- لها الحقُّ بمهاجمة أيِّ بَلَدٍ، تَدَّعي أنه يُمثِّل خَطراً مُحتمَلاً عليها. ولذلك، إذا ادَّعتْ الولاياتُ المتحدة، على أي أساسٍ كان، أنَّ أحداً ما قد يُهدِّدها، أصبح بالتالي لها الحق بمهاجمته.

لقد أُعلن عن مبدأ الحرب الاستباقية بشكل صريح، في التقرير القومي الاستراتيجي في أيلول الماضي. وقد أطلقَ التقرير رعدةَ رعبٍ عَبْرَ العالم، بما في ذلك داخلَ المؤسسة الأمريكية، حيث بإمكاني القول، بأن معارضة الحرب داخلها عالية بشكل غير معتاد. في الواقع، ذكر التقرير القومي الإستراتيجي أن الولايات المتحدة ستحكم العالم بالقوة، وهو البعدُ الوحيد الذي به تكون قوة عظمى. وعلاوة على ذلك، فإنها ستقوم بذلك إلى أمدٍ غيرِ منظور، لأن ظهور أي خطر محتمل يُهدِّد سيطرة أمريكا؛ سيَتِمُّ تدميرُه، قبلَ أن يُصبح تهديداً بالمعنى الصحيح.

هذه الحرب هي الممارسةُ الأولى لتلك العقيدة، وإذا نجحتْ بهذه الشروط، كما هو مفترض -لأن الهدف (العراق) لا يتمتع بالقدرة على الدفاع- عندئذ سيبدأ المحامون الدوليون والمثقفون

الغربيون وغيرهم، بالحديث عن معيار جديد في العلاقات الدولية. وإنه لمن المهم تأسيسَ مثلِ هذا المعيار؛ إذا كنتَ تتوقَّع أن تَحكمَ العالمَ بالقوة خلال المستقبل المنظور.

إن هذه الحادثةَ لا تُعَدُّ بلا سابقة، ولكنها غيرُ اعتيادية لدرجة كبيرة. وسأذكرُ سابقةً واحدةً كدليل على ندرة حدوثها، ففي عام ١٩٦٣، ألقى دين إكسون -رجل الدولة المتقاعد والمحترم، والمستشار رفيع المستوى لإدارة الرئيس كنيدي- كلمةً أمام الجمعية الأمريكية للقانون الدولي، برّر فيها الهجمات الأمريكية ضد كوبا. لقد كان الهجوم على كوبا من قبل إدارة الرئيس كنيدي إرهاباً دولياً كبيراً، وحرباً اقتصادية. كان التوقيتُ مثيراً للاهتمام - فقد أتى مباشرة بعد أزمة الصواريخ، عندما كان العالم قريباً جداً من حرب نووية نهائية. في خطابه، قال إكسون: "لن تظهر أي قضية قانونية عندما ترد الولايات المتحدة على التهديدات لمكانتها، وهيبتها وسلطتها" أو كلمات قريبة من هذا المعنى.

إن هذا أيضاً ضمن مبدأ بوش، وعلى الرغم من أن إكسون كان شخصية بارزة، لم يكن ما قاله من سياسة الدولة الرسمية في مرحلة ما بعد الحرب. ولكنها الآن تمثل السياسة الرسمية، وهذه

الحرب أول تمثيل لها. ويقصد منها أن تكون سابقة مشرِّعة لما بعدها في المستقبل.

تَنشَأُ مثلُ هذه "القيم" فقط عندما تقوم قوةٌ غربيةٌ بفعلٍ شيءٍ ما، وليس عندما يقومُ بها الآخرون. هذا جزءٌ من تمييزٍ عنصريٍّ عميقٍ في التراث الغربي، يعود إلى قرونٍ من الاستعمار، وهو عميق لدرجةٍ أنه لا شعوري؛ لذا أعتقد أن هذه الحرب خطوةٌ جديدةٌ مهمة ، ومقصودة.

راماتشاندران: هل تمثل هذه الحرب أيضا مرحلةً جديدةً من جهة أن الولايات المتحدة لم تستطع أن تَحمِلَ غيرَها من الدول عليها؟

تشومسكي: هذا ليس بجديد، ففي حرب فيتنام، لم تحاول الولايات المتحدة حتى أن تحصل على الدعم الدولي. على الرغم من ذلك، أنت مصيب في أن هذا غريبٌ بعض الشيء. هذه حالةٌ أُجبرَتْ أمريكا عليها، لأسبابٍ سياسية، على أنها كانت تُحاوِل إجبارَ العالم على قبول موقفها، لكنها لم تَقدِر، وهذا غير اعتيادي تماماً، ففي العادة يخضع العالم لها.

راماشاندران: بناءً على ذلك، هل يمثل هذا "فشلاً في الدبلوماسية" أو إعادة تعريف للدبلوماسية نفسها؟

تشومسكي: أنا لا أسميه دبلوماسية على الإطلاق، إنه فشل في الإجبار.

قارن هذه الحرب بحرب الخليج الأولى، حيث أَجبرَت الولاياتُ المتحدة مجلسَ الأمن على قبول موقفها، رغم أن الكثير من الدول عارضتْها. وقد سايرَ حلفُ الناتو أمريكا، والدولةُ الوحيدةُ في مجلس الأمن التي لم تَستجِب -اليمن- عُوقبت فوراً وبشدة.

في أي نظام قانوني تختاره بجدية، تُعَدُّ القراراتُ المتخذة عن طريق الإكراه غيرَ شرعية، ولكن القرارات الإجبارية التي تجري من قبل القوة العظمى في الشؤون الدولية تُعَدُّ حسنةً، وهم يسمونها دبلوماسية.

والملفت للنظر في هذه الحالة أن الإجبار لم يَنفع؛ فقد كان هنالك دول -معظمها في الواقع- مِمَّن أَصرَّتْ على احترام موقفِ أغلبيةِ شعبها وبصرامة.

وقد تمثلت أكثرُ حالةٍ مثيرة في تركيا. فتركيا دولةٌ سريعة التأثر بإغراءات الولايات المتحدة وعقوباتها. وبرغم ذلك، أصرَّتْ

الحكومةُ الجديدة -وأعتقد أن هذا يُعَدُّ مفاجأةً للجميع- على موقف حوالي ٩٠ بالمائة من شعبها، وقد أُدينتْ تركيا بشدة لاتخاذها موقف الغالبية الساحقة من أبناء شعبها، تماماً كما تُدان فرنسا وألمانيا بشدة لاتخاذهما موقف الأغلبية الساحقة من شعبيهما، أما الدولُ التي يَتم مدحُها فتتمثل في إيطاليا وأسبانيا، اللتين وَافقَ رئيساهما على أن يَتبعا أوامرَ واشنطن، مقابلَ معارضة ربما ٩٠ بالمائة من شعبيهما.

تلك خطوة جديدة أخرى، أنا لا أستطيع أن أُفكّر في حاله أخرى مماثلة يصرَّح فيها بشكل علني باحتقار الديمقراطية وكراهيتها، ليس فقط من الحكومة، ولكن أيضا من معلقين ليبراليين وآخرين. هناك الآن مادة مطبوعة كاملة تُحاول أن تُفسّر لِمَ تحاول فرنسا، وألمانيا -أو ما يسمى بأوروبا القديمة- وتركيا؛ أن يُضعفوا الولايات المتحدة. إنه غير قابل للتخيل عند الخبراء أن حكام هذه الدول يفعلون ذلك؛ لأنهم يأخذون الديمقراطية بجدية! وأنه يجب على الحكومة أن تلتزم برأي الأغلبية الساحقة من الشعب، عندما يكون لهم رأي ما.

ذلك ازدراء حقيقي بالديمقراطية، تماماً مثل ما حصل لمنظمة الأمم المتحدة، والذي يُعد ازدراءً كاملاً بالنظام الدولي. في الواقع، هناك نداءات – من صحيفة Wall Street، ومن أناس في الحكومة وآخرين– تدعو إلى حلِّ الأمم المتحدة .

إن الخوف من الولايات المتحدة عبر العالم أصبح فوق العادة، فهو كبير جداً بحيث إنه يَتِمُّ التناقشُ حوله في الإعلام السائد، كما أن قصةَ الغلاف لمجلة Newsweek في عددٍ أخيرٍ كان حولَ التساؤلِ عن خوف العالم من الولايات المتحدة، ووضعتْ مجلةُ The post قصةَ الغلاف عن الموضوع ذاته منذ أسابيع عدةٍ مَضَتْ.

بالطبع، يَتمُّ الاهتمامُ به على أنه خطأُ العالم، أي أن هناك خطأً ما في العالم، الذي علينا أن نتعامل معه بطريقة ما. ولكن أيضا هناك شئ يجب إدراكه.

راما تشاندران : إذن فكرة أن العراق يمثل أيَّ نوعٍ من خطرٍ موجودٍ، أو واضح، هي بالطبع بلا أي أساس.

تشومسكي: لا أحد يهتم بهذا الاتهام عَدًا –وبشكلٍ ملفتٍ للنظر– شعب الولايات المتحدة.

في الشهور القليلة الاخيرة كان هناك إنجاز مهم للدعاية الحكومية من قبل وسائل الإعلام، وهو واضح جداً من خلال استطلاعات الرأي. حيث تُظهر استطلاعات الرأي الدولية أن الدعم للحرب أعلى في الولايات المتحدة منه في الدول الأخرى. هذا، على أي حال، مضلِّلٌ تماماً، لأنك لو نظرتَ عن قربٍ أكثر، ستجد أن الولايات المتحدة مختلفةٌ أيضاً من منظورٍ آخرعن بقية العالم، فمنذ أيلول عام ٢٠٠٢، كانت الولايات المتحدة الدولة الوحيدة في العالم حيث يَعتقد ٦٠ بالمئة من شعبها بأن العراق يُشكِّل خطراً وشيكاً – وهو أمر لا يُصدقه أناسٌ في الكويت أو إيران. علاوة على ذلك، هناك الآن قرابة ٥٠ بالمائة من السكان يعتقدون أن العراق كان مسؤولاً عن الهجوم على مركز التجارة العالمي. حصل هذا منذ أيلول عام ٢٠٠٢، في الواقع كانت النسبة، بعد الحادي عشر من أيلول ٣ بالمائة. لكن تمكنت دعاية وسائل الإعلام الحكومية أن ترفعها إلى حوالى ٥٠ بالمائة. الآن، إذا اعتقد الناس أصلاً أن العراق نفَّذ هجماتٍ إرهابية ضدَّ الولايات المتحدة ويُخطِّط ليقوم بذلك مرة أخرى، في هذه الحالة سيدعم الناس الحرب؛ وهذا حصل – كما قلت – بعد أيلول ٢٠٠٢، حيث بدأتْ

حملةُ وسائل إعلام الحكومة، وحيث بدأت أيضا حملةُ الانتخابات الرئاسية النصفية. لو أن قضايا اقتصادية واجتماعية كانت قد تصدرتْ، لكانت إدارة الرئيس بوش قد تحطمتْ في الانتخابات، لكن إدارته تمكنتْ من تغييب هذه القضايا، لحساب قضايا أمنية- واحتشد الناس تحت مظلة السلطة.

هذه تماماً الطريقة التي كانت تُدار بها البلد في الثمانينات. تَذكَّرْ أن هؤلاء تقريباً هم نفس الناس في عهد إدارة ريغان، أو بوش الأب. وقد نَفَّذوا خلال الثمانينيات مباشرةً سياساتٍ محلية كانت مؤذيةً للشعب، والتي -كما نعرف من الاستطلاعات الكثيرة- عارضَها الناس، ولكنهم تمكنوا من أن يواصلوا السيطرة بإخافة الناس، فالجيشُ النيكاراجوي كان على بعد مسيرة يومين من تكساس، وعلى وشك أن يَقهر الولايات المتحدة، وكانت القاعدة الجوية في غرانادا إحدى القواعد التي قد يقصفنا الروس منها، كانت أمراً تلو الآخر وكانت في كل عام، وكلٌّ منها مثيرٌ للضحك. في الحقيقة أعلنت إدارة ريغان حالة طوارئ وطنية في عام ١٩٨٥م بسبب تهديد أمن الولايات المتحدة، الذي أثارتْه حكومة نيكاراجو، ولو كان أحد من المريخ يشاهد هذا؛ لكان تحيَّر بين الضحك والبكاء.

إنهم يعملون الشيء نفسه الآن، وسيعملون على الأرجح الشيء ذاته للحملة الرئاسية. لا بد أن يكون هناك ضحية لتذبح، لأن الإدارة إذا سمحت للقضايا المحلية بالظهور، فستكون في مشكلة عميقة.

راماتشاندران: أنت كتبتَ أن لهذه الحرب العدوانية آثاراً خطيرةً فيما يتصل بالإرهاب الدولي، وخطر الحرب النووية.

تشومسكي: أنا لا أزعم أي جديد في هذا الرأي، أنا أقتبس فقط ما تقوله وكالة المخابرات المركزية، وغيرها من وكالات الاستخبارات، وما يقوله فعلياً، كلُّ خبيرٍ في الشؤون الدولية، والإرهاب. إن مجلس الشؤون الخارجية، والسياسة الخارجية، والدراسةُ التي أجرتها الأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون، ولجنةُ هارت ردمان ذات المستوى الرفيع، للتهديدات الإرهابية لأمريكا، جميعُهم يُجمعِون بأن هذه الحرب مِن المحتمل أن تُسبِّب زيادةً في الإرهاب، وانتشارَ أسلحة التدمير الشامل.

والسبب بسيط: جزء منه للانتقام، وجزء منه لحماية النفس فحسب.

ليس هناك طريقةٌ أخرى لحماية النفس من اعتداء أمريكا، والحقيقة أن الولايات المتحدة تَجعَلُ مِن هذه النقطة أمراً بالغَ الوضوح، وتُعطِي للعالم درساً بشعاً للغاية.

قارن بين كوريا الشمالية والعراق. إن العراق ضعيف، وفاقد لأيّ نوعٍ من الحماية. بل إنه في الحقيقة أضعفُ نظامٍ في المنطقة. وبينما هنالك وحشٌ مريعٌ يُديرُه، فإنه لا يُمثِّل تهديداً لأحد. في المقابل، تُمثِّل كوريا الشمالية تهديداً، لكن كوريا الشمالية، على أية حال، لم تهاجَم لسببٍ بسيطٍ جِداً: إنها تمتلك قوةَ الردع، إنها تمتلك مدفعيةً مُدرَّعةً مُصوَّبةً تِجاه سِيؤول، وإذا هاجمتْها الولاياتُ المتحدة، فإنها تَستطيع أن تمحو من الوجود جزءاً كبيراً من كوريا الجنوبية .

وإذن؛ فالولاياتُ المتحدةُ تقول لدول العالم: إذا كنتم غيرَ قادرين على الدفاع؛ فسنهاجمكم عندما نُريد، ولكن إذا كنتم تَملكون الردع؛ فسنتراجع، لأننا نهاجم فقط الأهدافَ غيرَ القادرة على المقاومة. وبكلماتٍ أخرى، إنها تخبر الدول بأنه من الأفضل لها أن تُنشِئَ شبكةً إرهابيةً، وأسلحةَ دمارٍ شامل، أو أسلحة ردعٍ أخرى محتملة؛ وإذا لم يَفعلوا، فهم عرضةٌ "للحرب الاستباقية" .

لهذا السبب وحده، من المحتمل أن تؤدي هذه الحرب إلى انتشار كل من الإرهاب وأسلحة التدمير الشامل.

راماتشاندران: كيف تظن أن الولايات المتحدة ستدير النتائج الإنسانية والإغاثية لهذه الحرب؟

تشومسكي: لا أحد يَعرِف بالطبع. وهذا الذي يجعل الناس المهذبين والصادقين لا يلجأون للعنف؛ لأن المرء ببساطة لا يعرف النتائج.

لقد أشارت المجموعات الطبية ووكالات الغوث في العراق إلى أن النتائج يمكن أن تكون مؤلمةً جداً. ويأمل كل شخص أن لا يقع ذلك، ولكنه قد يؤثر في ملايين الأشخاص. إن الشروع في العنف عندما يكون هنالك احتمال كهذا هو عملٌ إجرامي.

هناك أصلاً -أي حتى قبل الحرب- كارثةٌ إنسانية، وحسب تقديرات المعتدلين، فإن عشر سنوات من العقوبات قتلت مئات الآلاف من البشر. ولو كان هناك أي صدق، لدفعت الولايات المتحدة تعويضاتٍ للعقوبات.

إن الموقف مشابهٌ لضرب أفغانستان، حيث تكلّمنا أنا وأنت عنه، عندما كان القصف في مراحله الأولى. لقد كان من الواضح أن الولايات المتحدة لن تبحث في العواقب.

راماتشاندران: أو تستثمر المال الذي كانت بحاجة له.

تشومسكي: لا بالطبع. في البدء: إن السؤال لم يكن مطروحاً، وإذن فلم تكن لدى أحدٍ فكرةٌ عن نتائج القصف على معظم البلد. وأخيراً: أصبح الأمر خارج التغطية الإخبارية، ولا أحد يتذكره بعد ذلك.

في العراق ستبدي الولايات المتحدة استعراضاً لإعادة الإعمار الإنساني، وستضع نظاماً للحكم ستدعوه بالديمقراطي، ممَّا يَعني أنه يتبعُ أوامرَ واشنطن. ثم ستنسى ما يحصل هناك، وستواصل طريقَها للبلد التالي.

راماتشاندران: كيف وصلت وسائل الإعلام إلى شهرة النموذج الدعائي هذه المرة.

تشومسكي: في الوقت الحالي إنها كفتيات التشجيع لفريق بلدها، اُنظر إلى CNN التي تثير الاشمئزاز، والأمر نفسُه يَنطبِق في كل مكان، وهذا متوَقَّعٌ في وقت الحرب، فالإعلام مُتخَمٌ بعبادة السلطة.

والأكثر طرافةً ما حصل أثناء الحشد للحرب، إن حقيقة أن دعاية وسائل الإعلام الحكومية كانت قادرةً على إقناع الشعب أن

العـراقَ خطرٌ وشـيكٌ، وأنه مسـؤولٌ عن أحـداث الحـادي عـشـر من أيلول؛ هـو إنجـاز هـائل، وكمـا قلت، لقـد تم تحـقـيـقـه في حـوالي ٤ أشهر. إذا سألت الناس في الإعلام عن هذا سيقولون: "حسناً، إننا لم نقل ذلك أبداً". وهذا صحيح؛ فهم لم يقولوا، ولم يكن هناك أبداً أيٌّ تصريحٍ بأن العراق في طريقه إلى غزو الولايات المتحدة، أو أنه نَفَّذ هجـوم ١١ أيلول. ولكنه تَمَّ إدراج ذلك بطريقـة غيـر مبـاشـرة، ومن خلال التلميحِ، بَعدَ التلميحِ؛ حتى حَصَلوا على تصديق الناسِ في النهاية.

رامـاتشـاندران: انظر إلى مـقـاومـة الحـرب، بـرغم الدعـاية، وتشويه سمعة الأمم المتحدة فإنهم لم ينتصروا تماماً.

تشـومسكي: أنت لن تعـرف أبداً. الأمم المتحدة في وضع خَطِرٍ للغاية.

إن الولايات المتحدة قد تتحرك لتفكيكيها. مع أنني حقاً لا أتوقع ذلك، ولكن على الأقل للتقليل من شأنها؛ لأنها إذا لم تكن تتبع الأوامر؛ فما الفائدة منها؟

راماتشاندران: نعوم، لقد شاهدتَ حركاتٍ مقاومةً للاستعمار، خلال وقتٍ طويل - فيتنام، أمريكا الوسطى، حرب الخليج الأولى-

فما هي انطباعاتك حول خصائص المعارضة الحالية للعدوان الأمريكي وعمقها وانتشارها؟ إننا نستمد دفعة عظيمة للأمام من الاحتشادات الاستثنائية عبر العالم كله.

تشومسكي: هذا صحيح، ولا يوجد شيء يُشبِه هذا. المعارضة عبر العالم عظيمة، وغير متوقعة، وهذا ينطبق على الولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال، البارحة كنتُ في مسيرةٍ في وسط بوسطن، حولَ حديقةِ بوسطن العامة. ولم تكن هذه المرة الأولى لي. في المرة الأولى شاركت في مسيرة هناك، وعند المكان الذي كان علي أن ألقي فيه خطاباً في تشرين الأول عام ١٩٦٥، وكان ذلك بعد أربعة أعوام من بدء الولايات المتحدة قصف فيتنام الجنوبية. نصف فيتنام الجنوبية كان قد دُمر، وامتدت الحرب إلى فيتنام الشمالية. لم يكن بوسعنا التظاهر؛ لأن المظاهرة كانت تُهاجَم جسديًا، وعلى الأغلب من الطلاب، بدعم من الصحافة والإذاعة الحرة، الذين انتقدوا بشدة هؤلاء الناس، ممن كانوا يتجرؤون على التظاهر ضد حربٍ أمريكية.

في هذه المناسبة -على أية حال- كانت هناك مظاهرةٌ حاشدةٌ، قبل أن تبدأ الحرب رسمياً، ومرة أخرى في يوم بداية الحرب

- وبدون أي متظاهرين معترضين -. إن هذا اختلافٌ جذري. وإذا لم يكن بسبب عامل الخوف الذي ذكرته فربما يكون هناك المزيد من المعارضين.

إن الحكومة تعلم بأنها لا تستطيع شن عدوان وتدمير طويلي المدى مثل فيتنام، لأن الشعب لن يتسامح معه.

هناك فقط طريقة واحدة للقيام بالحرب الآن، أولاً وقبل كل شيء: اختر عدواً شديد الضعف، غيرَ قادرٍ على الدفاع عن نفسه، ثم مهد الطريق في النظام الدعائي، إما بقرب اقتراف العدو للعدوان، أو بأنه يُمثِّل خطراً وشيكاً، وبعدها أنت تحتاج إلى نصر خاطف. لقد حدَّدتْ وثيقةٌ -تَمَّ تسريبُها- مِن وثائق إدارة بوش الأولى، في ١٩٨٩م؛ كيف يجب على الولايات المتحدة أن تخوض حرباً. لقد أوضحتْ أن على الولايات المتحدة أن تحارب الأعداء الأضعف، وأن النصر يجب أن يكون سريعاً وحاسماً، لأن الدعم الشعبي سيتناقصُ سريعاً، فالوضعُ ليس كما كان في الستينات، عندما كان بالإمكان خوضُ حربٍ لسنوات، دون معارضة على الإطلاق.

بطرقٍ كثيرةٍ، تَمكَّنَ ببساطة الاتجاهُ المُؤكِّدُ على الفعالية والتحرك، خلالَ عقد الستينات والسنواتِ اللاحقة له من جعل جوانبَ كثيرةٍ في العالم - بما في ذلك هذا البلد- أكثرَ تحضُّراً في العديد من المجالات.

■ الإقلاع عن العادة العلمانية
برنامج من ست خطوات

"*إن العلمانية ليست هي المستقبل؛ إنها رؤية الأمس الخاطئة للمستقبل. هذا الإدراك يدفع بنا نحن العلمانيين في طور التعافي إلى محلات بيع الكتب، أو المكتبات العامة، في محاولة يائسة لاكتشاف ما الذي يحدث في العالم.*"

ديفيد بروكس

الإقلاع عن العادة العلمانية.. برنامج من ست خطوات[١]

بقلم: ديفيد بروكس[٢]

أنا مِثلُ الكثير من الناس اليوم: علمانيٌّ يَستعيدُ عافيتَه.

لقد كنتُ حتى ١١ أيلول أَقبَلُ الفكرةَ التي تقول: إن العالم كلما أصبح أكثر غنى وتعليماً أصبح أقل تديناً. إن هذه النظرية تتمسك -من خلال الاستنتاج من عيِّنةٍ إنسانية محدودة وغيرِ مُمَثِّلَة (بعض أجزاء من أوروبا الغربية، وأجزاء من أمريكا الشمالية)- بأن التاريخ كلما تقدم إلى الأمام؛ فإن العلم يَحُلّ مكانَ التسليم الاعتقادي، والتعليلُ السببي يَحُلّ بديلاً عن التسليم غير الخاضع للتعليل العقلي، وإن أي منطقة لم تنل حصتها بعد من الإصلاح والتنوير- كالعالم العربي مثلا-؛ لابد أنها سوف تنالها، عاجلاً أم آجلاً.

(١) مجلة أتلانتك منثلي، أذار/ مارس ٢٠٠٣م.

(٢) مدير التحرير في مجلة: ويكلي ستاندرد، ومحرر مشارك في مجلة نيوزويك، ومجلة أتلانتك منثلي الأمريكيتين، وكاتب العمود الدائم بمجلة نيويورك تايمز: "عصر الآلة".

إن من الواضح الآن بأن نظرية العلمنة هذه غير صحيحة؛ فالجنس البشري لا يصبح بالضرورة أقل تديناً كلما أصبح أكثر غنى، أو أفضل تعليماً. إننا نعيش اليوم في ظل واحدة من أعظم فترات التقدم العلمي، وتخليق الوفرة، وفي الوقت نفسه فإننا في قلب الازدهار الديني.

إن الإسلام يموج بالحركة. واليهودية الأرثوذكسية تنمو في الأوساط الفتية من المجتمع، وإسرائيل تزداد تديناً كلما أصبحت أكثر غنى. والتنامي في المسيحية يفوق كل الأديان الأخرى. لقد نشرتْ هذه المجلة (مجلة أتلانتك منثلي) مقالاً في عام ١٩٤٢م كان عنوانه: "هل سوف تنجو الكنيسة المسيحية من الاندثار؟" والحال أن ثمة الآن بعد ستين سنة من نشر المقال بليونين من المسيحيين في العالم، وبحلول ٢٠٥٠ فإن العدد وفقاً للتقديرات سيصبح ثلاثة بلايين. وكما يلاحظ فيليب جينكينز أستاذ التاريخ والدراسات الدينية في جامعة بنسلفانيا، فإن أكثر الحركات الاجتماعية التي شهدها عصرنا نجاحاً ربما تكون حركة الـ (Pentecostalism) راجع مقال"المسيحية التالية" في عدد أكتوبر من مجلة أتلانتك. فقد تحققتْ لها البداية في لوس أنجلوس منذ حوالي القرن، والآن

يعتنقها ٤٠٠ مليون من الناس - وهذا الرقم وفقا لما يقوله جينكينز ربما يبلغ المليار عند حلول منتصف القرن -.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الطوائف الدينية، التي ترفض تبني العلمنة، هي الطوائف الأسرع نمواً، بينما تستمر في الذبول والاضمحلال تلك التي تحاول أن تكون عصرية (modern). وإن الصيغ المثيرة من المسيحية، والصيغة المقاومة للحداثة من الإسلام هي التي تنمو وتزدهر. إن تعداد المسيحيين في أفريقيا، الذي كان يبلغ ١٠ ملايين تقريباً في عام ١٩٠٠م، والذي يبلغ الآن حوالي ٣٦٠ مليوناً؛ من المتوقع له أن يبلغ في عام ٢٠٢٥م: ٦٣٣ مليوناً، مع سيطرة للمجموعات الإنجيلية المحافظة. إن الكنائس في أفريقيا تغدو أكثر نفوذاً من العديد من الكيانات القومية، مع ما ينشأ عن ذلك من آثار، الجيد منها والرديء.

إن العلمانية ليست هي المستقبل؛ إنها رؤية الأمس الخاطئة للمستقبل. هذا الإدراك يدفع بنا نحن العلمانيين في طور التعافي إلى محلات بيع الكتب، أو المكتبات العامة، في محاولة يائسة لاكتشاف ما الذي يحدث في العالم. إنني أشك أني الوحيد، الذي وجد نفسه بعد الحادي عشر من سبتمبر يقرأ طبعة ورقية

(غيرمجلدة) من القرآن، والتي كانت قد أُحضرتٌ من بضع سنين خلت، في تلائم مع سمو المبدأ، ولكنها في الحقيقة لم تُفتح قط، وربما لستُ الوحيد الذي يتعمق الآن في دراسة تعاليم أحمد ابن تيمية، وسيد قطب، ومحمد بن عبد الوهاب.

إن عملية التشافي من العلمنة تحتاج إلى ست خطوات:

أولاً: عليك أن تقبل حقيقة أنك لست المعيار أو النموذج.

إن المؤسسات الغربية والجامعات ترسل مجموعات الباحثين من أجل أن تدرس وتشرح ظاهرة الحركات الدينية، ولكن -وكما أشار إلى ذلك عالم الاجتماع بيتر بيرجر- فإن الظاهرة التي تحتاج حقاً إلى تفسير؛ إنما هي عادات أو سلوكيات أساتذة الجامعة الأمريكان، ويجب على المجموعات الدينية أن تكون هي من يرسل الباحثين؛ لمحاولة فهم: لماذا تُوجد مجموعات ضئيلة من البشر في العالم، لا يشعرون بالحضور المستمر للإله في شئون حياتهم، ولا يملئون أيامهم بالشعائر والصلوات التي تهيؤهم للاتصال بالنبوءة والحدس، ولا يؤمنون بأن رغبة الإله يجب أن تشكل حياتهم العامة.

حالما تقبل هذا - وهو يشبه تفهم أن الأرض تدور حول الشمس والعكس بالعكس- فإنك تستطيع أن تبدأ رؤية الأشياء بطريقة جديدة.

الخطوة الثانية: في اتجاه الشفاء تتضمن التصدي للخوف.

لبضع سنوات بدا أننا كنا جميعاً نتجه نحو نهاية حميدة للتاريخ، ربما كان السأمُ فيها أحدَ أعظم مخاوفنا. لقد فازت الديمقراطية الليبرالية بيومها الموعود. ونعم، تَوجَّب علينا أن نتناقش حول العولمة وعدم المساواة، ولكنها كانت مفاهيم مادية وتعيسة.

أما الآن فنحن ننظر إلى المصادمات الأساسية للعقيدة، وإلى الحالة المروِّعة حقاً -على الأقل في نصف الكرة الجنوبي-، التي تُذَكِّر بالعصور الوسطى، مع حكوماتٍ واهنة، وجيوشٍ من المبشرين، وصراعٍ ديني عنيف.

الخطوة الثالثة: أن تصبح غاضباً.

أنا الآن أعاني انزعاجاً مفرطاً بسبب الأصوليين العلمانيين، الذين هم راضون ببقائهم متجاهلين للتحولات الهائلة، التي تحدث من حولهم في كل مكان. إنهم لا يتعلمون أي شيء عن الدين، داخلَ بلادهم وخارجَها. إنهم لا يعرفون من يكون تيم لاهاي وجيري بي جينكينز، حتى وهذان هما المؤلفان، اللذان باعا ٤٢ مليون نسخة من كتبهما! إنهم ما زالوا لا يعرفون ما الذي جعل من عيد

الخمسين عند المسيحيين عيد الخمسين (بإمكانك أن تعبر داخل غرفة من غرف الأخبار الأمريكية، وتسأل هذا السؤال، وستجد أن الناس الذين قد يكونون قادرين على الإجابة؛ هم ربما السكرتارية، أو موظفو الأمن). إنهم ما زالوا لا يعرفون عن ميشيل عفلق، القومي العربي الروحاني، الذي كان المرشد الروحي لصدام حسين. إن زخات نياجرا الانتقاد الديني هذا الشلال العظيم، تنهمر من حولهم، بينما يقفون بُلداءَ، ومُتَيَبِّسين، في كهفٍ حقير من ضيق أفق التفكير، والكثير منهم صحفيون، ومحللون سياسيون، إنما يُدفَع لهم من أجل مواكبة هذه التغيرات.

الخطوة الرابعة : في اتجاه الشفاء، تكون بمقاومة دافع البحث عن تفسيرات مادية لكل شيء.

خلال القرون، عندما تبدّت العلمنة، بصفتها موجةَ المستقبل؛ طوّر المفكرون الغربيون نماذج لعلم اجتماعٍ، مُقْنِعٍ بصورةٍ استثنائية. فقد شرح ماركس التاريخ عبر صراع الطبقات، وشرحه اقتصاديون آخرون من خلال تعظيم الأرباح والفوائد، واستخدم أساتذة الشئون الدولية، مبادئَ صراع المصالح، ونظريةَ اللعب؛ للتنبؤ بالتفاعلات بين الأمم.

كل هذه النماذج مغرية، وصحيحة جزئياً. وهذا البلد (أمريكا) يستمر في بناء مؤسسات قوية من أمثال قسم الشئون الخارجية، والسي آي إي، التي يستخدمها لتطوير سياسات ذات مغزى. ولكن ليس ثمة أي نموذج من هذه النماذج يستطيع أن يأخذ في الحسبان، وبصورة ملائمة، الأفكارَ والدوافعَ والتصرفاتِ الدينية، لأن التوقد الديني لا يمكن قياسُه ولا تنميطه. إن الدوافع الدينية لا يمكن أن تفسر بتحليل حدود الكسب والخسارة.

لقد كان محللو السياسة المدنية، عبر السنوات العشرين الماضية، يفكرون بجد في الوظائف والأدوار، التي يلعبها الدين والخصائص الشخصية في الحياة العامة. إن نخب سياستنا الخارجية هم متأخرون عنها بعقدين من السنين على الأقل. لقد استمروا لشهور يتجاهلون قوة الدين، وحينها عندما اصطدموا مع أمرٍ لا مفر من كونه دينياً، كالثورة الإيرانية، أو طالبان، بدؤوا يتحدثون عن الحماس والتعصب الديني، اللذين أصبحا، وبصورة مفاجئة، يفسران كلَّ شيء. وبعد بضعة أيام من هز الرؤوس الرافضة للمتعصبين؛ عادوا إلى تحليلاتهم العلمانية المعتادة. إننا حتى الآن لم نملك -مع حاجتنا المؤكدة- نموذجاً للتحليل، يُحاوِل أن يدمج العاملَ الروحيّ، والعاملَ المادي معاً.

يجب على العلماني المتعافي، أن يقاوم إغراء معاملة الدين بصفته مَعْبراً أو قناةً مجرَّدة لدوافع اقتصادية مقاوِمة. على سبيل المثال: نحن غالباً ما نقول: إن الشبان العرب الذين لا يملكون إمكانياتٍ لائقة؛ يتحولون إلى الإسلام الثوري. إن هناك بشكل واضح بعض الحقيقة في هذه الرؤية، ولكنها ليست كل القصة: فلا أسامة بن لادن، ولا محمد عطا -على سبيل المثال- كانا فقيرين أو مقموعين. ومع ذلك فإن من المحتمل تشييد نظريات، تشرح اتجاههما الراديكالي بصفته نتيجةً لتوحدهما، أو لأشياء أخرى من عوامل التحليل العلماني، مع أن الذي يقدِّم إدراكاً أفضل، هو الاعترافُ بأن الإيمان مصدر القوة، بصورة مستقلة، وربما أقوى من أي استياء اقتصادي.

إن الكائنات الإنسانية تتوق إلى حكم الصلاح والاستقامة، وإلى عالم الإنصاف، أو عالمٍ يعكس مراد الإله، وفي كثير من الحالات، وعلى الأقل بمقدار مشابه في القوة، لاشتياقها إلى النجاح أو المال. وإن التفكير في هذا التوق؛ يعني التحرك بعيداً عن التحليل العلمي، والدخول إلى ممالك الحكم الأخلاقي. إن السؤال الحاسم لا يكون عن: ما هو نوع الدوافع الذي يستجيب لها هذا التوق؟ ولكن: هل

الأفراد يتبعون رؤيةً أخلاقيةً للحكم الصالح؟ وهل هم يمارسون ذلك من خلال طرقٍ مستقيمةٍ وفاضلة؟ أم أنهم مثل صدام حسين وأسامة بن لادن أشرار في رؤيتهم وطرائقهم؟

الخطوة الخامسة:

يجب أن يعترف العلماني في طور التشافي، بأنه كان متراخياً جداً مع الدين؛ لأنه افترض أن الدين يلعب دوراً متقلصاً في الشئون العامة. لقد عامل الدين بغطرسة، ثم قرّر متنازلاً عَدمَ محاكمة العقائد الأخرى، فهي كلها طرق مشروعة لمقاربة الإله، كما أخبر نفسَه، وقرر أن يذوبَ أخيراً في واحدة منها.

ثم بعد كل شيء، ما الداعي لإثارة المشكلة بمحاكمة عقائد الآخرين؟ إنه ليس تصرفاً مؤدباً. إن الخيار الأفضل عندما تواجَه ببعض التصرفات القبيحة، التي يتم ممارستُها باسم الدين، هو أن تتفادى عيون هؤلاء.

هل الوهابية هي شِقٌّ قاسٍ يَضُرّ بالإسلام؟ لا تتحدث عن هذا.

ولكن لا يمكن لهذه المقاربة أن تكون مقبولة، في عالم يلعب الدينُ فيه، الدورَ الأعظم بصورة مطلقة. على الشخص أن يحاول الفصل بين الصواب والخطأ. ولكن المشكلة أننا في المرة التي نبدأ

فيها بفعل ذلك؛ فإنه من الصعب أن نقول: أين سينتهي بنا المطاف؟ أَمْعِنِ النظرَ في (بيم فورتشوين) السياسي الألماني ذي النزعة اليسارية، والمدافع عن حقوق الشاذين، الذي ينتقد المهاجرين المسلمين لمواقفهم تجاه النساء والشاذين؛ عندما تم اغتياله في السنة الماضية، وصفته الصحافة بناءً على هذه النزعات النقدية، بأنه يميني من نوعيةِ جين ماري لوبان، وهو وصفٌ بعيد عن الحقيقة. إن تصنيفات اليسار واليمين في عالم اليوم ما بعد العلماني ستصبح غير ملائمة، ومنتهية الاستعمال.

الخطوة السادسة والأخيرة: للعلمانيين في طور التعافي.

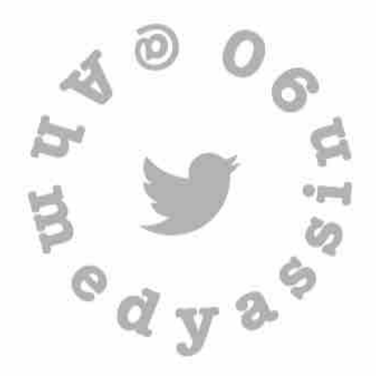
هي أن يفهموا بأن هذا البلد لم يكن علمانياً بالفعل في أي يوم من الأيام.

إننا نحن الأمريكان نتوق إلى معيار الصلاح والاستقامة بتوقُّدٍ كأي شخص آخر. إننا مغروسون مع الفكرة التي عَبَّرتْ عنها كلمات أبراهام لينكولن: نحن نمثل "الأمل الأفضل والأخير للمعمورة". إن العديد من الأمريكيين أحسوا وباستمرار، بأن لدينا مهمة غير عادية، ومتجاوزة للحدود، مع أنها، ولحسن الحظ، ليست من النوع اللاهوتي. إننا نُحس غريزياً، وبطرق لا يحس بها الناس في أماكن

أخرى، بأن التاريخ لم يتحقق بعد، طالما بقي هناك أمم أو شعوب، لا يكون الناس فيها أحراراً. وهذا هو الإحساس الغريزي الذي قاد بوش للاستجابة بصورة طموحة جداً، لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهذا ما قاد الأغلبية من الأمريكان لتأييده.

إن الأمريكيين نشطون كغيرهم في صراع عقائد النهايات. يرى صدام حسين التاريخ ينتهي مع أمة عربية موحدة، مسيطرة عالمياً، مع تحقيقه لمكانة مبجلة، كصانع لنظام عالمي كهذا. ويرى أسامة بن لادن التاريخ ينتهي بفرضٍ عالمي لقانون الشريعة. والكثير من الأوروبيين يرون التاريخ ينتهي بإقامة مؤسسات عالمية علمانية، حيث ستهدأ الانفعالات القومية والدينية، وتُعطِي دولُ القوميات معبراً للقانون الأممي، وللتعاون المتعدد. والكثير من الأمريكان يرونَ التاريخَ ينتهي بانتصار الحرية، واحترام الدستور، مع تدين غير متخلى عنه، أو مقموع، وإنما مثرٍ للحياة الديموقراطية.

إنه لا مفر من كوننا عالقين في عالم من الرؤى المتصارعة، في رؤيتها للقَدَر التاريخي. ولكن فهمَ هذا العالم يَعني: جلدَ التحيزات العلمانية، الصادرة عن عقولنا كل يوم.


@Ahmedyassin90

■ التعريف بالكتاب

التعريف بالكتاب

١-بول كينيدي:

أستاذ التاريخ بجامعة ييل، ومدير مركز الدراسات الأمنية الدولية بها، وأحد أشهر المؤرخين الأمريكان المعاصرين، عُرف عالميا بكتاباته وتعليقاته في شؤون الاقتصاد والسياسة الدوليين، والقضايا الاستراتيجية. ألَّف وحرر ١٣ كتاباً، من أشهرها: "صعود القوى العظمى وسقوطها" و" الاستعداد للقرن الحادي والعشرين"، وهما مترجمان إلى العربية وأكثر من عشرين لغة أخرى.

٢-آندرو باسيفيتش:

أستاذ في الدبلوماسية الأمريكية والتاريخ العسكري، يشغل حالياً: أستاذاً في قسم العلاقات الخارجية بجامعة بوسطن، ورئيس مركز العلاقات الخارجية، وأستاذاً في الدراسات الدولية المتقدمة بجامعة هوبكنز، والمدير التنفيذي لمعهد السياسة الخارجية، والمدير التنفيذي والمشارك في التأسيس لمركز التعليم الاستراتيجي. نشر العديد من الدراسات في مجلات مختلفة

كمجلة الشئون الخارجية، ومجلة التاريخ العسكري، ومجلة ويلسون ربع السنوية، ومجلة التاريخ الدبلوماسي، وغيرها. كما ألف وحرر العديد من الكتب من آخرها:

-War Over Kosovo: Strategy and Policy in a Glob Age (2002).

- American Empire: The Realities and Consequences of U. S. Diplomacy (forthcoming).

٣-روبرت دريفس:

من الكتاب الدائمين في مجلة أميركان بروسبكت، ومجلة مادرجونز الأمريكيتين. وفاز في ٢٠٠٢م بلقب: "صاحب أفضل عمل صحفي بحثي مطبوع". نشرت له مجلة أمريكان بروسبكت أكثر من ثلاثين مقالاً ودراسة.

٤-نيل فيرجسون:

أستاذ التاريخ الاقتصادي والسياسي في: جامعة نيويورك، وأستاذ سابق للتاريخ السياسي والاقتصادي وباحث متقدم في جامعة إكسفورد، ألّف العديد من الكتب، وفاز بجائزة دولية في

الدراسات التاريخية على كتابه عن الحرب العالمية الأولى، كما اشتهر مؤخراً بإعداده للبرنامج المتلفز عن الإمبراطورية البريطانية، الذي بثته القناة الرابعة البريطانية في يناير ٢٠٠٣م، ومن كتبه الأخيرة:

-The Cash Nexus: Money and Power in the Modern World, published by Penguin in February 2001

٥- ستيفن هولمز:

أستاذ العلوم السياسية في جامعة برنستون، وأستاذ القانون في جامعة نيويورك، نشر العديد من الدراسات منذ أكمل الدكتوراة في جامعة ييل عام ١٩٧٦م، ومن كتبه المنشورة:

-The Cost of Rights. New York: W.W. Norton, 1998 (with Cass Sunstein).

- Passions and Constraints: The Theory of Liberal Democracy. 1995.

- Anatomy and Antiliberalism. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993

Benjamin Constant and the Making of Modern Liberalism. 1984

٦-نعوم تشومسكي:

أستاذ اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وأحد أبرز مؤسسي علم اللسانيات المعاصر، وأشهر معارضي سياسات الحكومة الأمريكية. ناشط سياسي يساري في الحركات المناوئة للاستعمار في الولايات المتحدة، منذ خمسينات القرن الماضي، له العديد من الكتب والمقالات والمحاضرات والمقابلات: في اللغويات، والفلسفة، وتاريخ الأفكار، والشئون الدولية المعاصرة، والسياسة الخارجية الأمريكية. وقد نَشر أكثر من ثلاثيناً كتاباً سياسياً، والمئات من المقالات، والمقابلات.

٧- ديفيد بروكس:

مدير التحرير في مجلة: ويكلي ستاندرد، ومحرر مشارك في مجلة نيوزويك، ومجلة أتلانتك منثلي الأمريكيتين، وكاتب العمود الدائم بمجلة نيويورك تايمز: "عصر الآلة"، وكاتب منتظم في مجلات: نيويركر، ونييورك تايمز، وكومنتري، وفوربس، وواشنطن بوست، وغيرها.

■ الإصدار القادم

المؤلف:

باتريك بيوكانن، كبير المستشارين لثلاثة رؤساء أميركيين، خاض الترشيح الجمهوري للرئاسة الأميركية مرتين في عام ١٩٩٢م وعام ١٩٩٦م، وكان مرشحاً لرئاسة حزب الإصلاح في عام ٢٠٠٠م، و قد قام بتأليف خمسة كتب أخرى بما فيها الكتابان الأكثرمبيعاً: "الحق منذ البداية" و" جمهورية وليس إمبراطورية"، وهو كاتب عمود، ونقابي، وعضو مؤسس لثلاثة من أهم برامج النقاش حول الشؤون العامة في أميركا، هي: "مجموعة مكلافلن" في قناة NBC، و"عصابة الكونغرس"، و"نقاش حاد" في قناة CNN.

الكتاب:

وصفت صحيفة "واشنطن تايمز" الكتابَ بأنه: "من أفضل كتب المؤلف حتى الآن"، وقد بيع منه بعد أشهر من صدوره أكثر من ٢٠٠ ألف نسخة، وترجم إلى معظم اللغات الأوروبية. وهو يقدم شرحاً مفصلاً، حول زوال الثقافة، والحضارة، والقيم الأخلاقية، ويتوقع بروز نظام عالمي جديد، له دلالات مهددة بالنسبة لأوروبا وأمريكا، أو للعنصر الأبيض في العالم. لكن يبقى أهم ما في الكتاب نوع المعلومات الموظفة فيه واتساعها، وطرائق التحليل والربط بينها، مع المقارنة الذكية بعناصر القوة التي صنعت الحضارة الغربية منذ بزوغها حتى الآن.


كتاب الأسلاة (٣)
الأمبراطورية
بعد احتلال العراق
دراسات وأبحاث مترجمة إلى العربية
تصوير
احمد ياسين
بول كينيدي . نعوم تشومسكي . وآخرون
ترجمها وقدم لها : تركي الزميلي
www.islamtoday.net